

التراث والعلوم الاسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

قطاع النشر

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / أمين حسين شعراوى

****

رئيس قطاع النشر والتوزيع

سعاد قنديل

الإدا‍ ٤ : ٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة .

: ت ٠ ٣٥٥١٥٩٩

. ت : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٨٠٠

فاكس : ٣٥٤٤٨١١ - ص ب ١٤ رقم بريدى ١١٥١٦

الديوان

(في الأدب والنقد)

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد — ابراهيم عبد القادر المازني

الطبعة الرابعة

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض فى احاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة فى اصوله وفنونه ، اخصها الامل فى تقدمه ، لالتفات الاذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الاقلام المغموزة والمآرب المتهمة الى حظيرته. وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الامل وتوقى تلك العلل . وهو كتاب يتم فى عشرة اجزاء (١) . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب فى بضع السنوات الاخيرة وراوا بعض آثاره وتهيات الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى أجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو ان نكون فيه موفقين الى الافادة

---

(١) لم يظهر من الديوان فى النقد والادب الا جزءان طبع اولهما فى يناير وثانيهما فى فبراير سنة ١٩٢١ واعيد طبعهما بعد شهرين

مستدين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا ـ ان افلحنا فيه ـ انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصري عربي : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي لأن لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن ادبنا الموروث في اعم مظاهره الا عربيا بحتا يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة اصناما عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلهذا اخترنا ان نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة ، ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لاقدارها . فان اصبنا الهدف والا فلا اسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانا .

شوقى فى الميزان (توطئة)

كنا نسمع الضجة التى يقيمها شوقى حـول أسمه فى كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات فى البلد ، لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة فى أدبه عن النقد ، فان أدب شوقى ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فى اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففا عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسـها طى الضريح ونحن من ذلك الفريق من النـاس الذين اذا ازدروا شـيئا لسبب يقنعهم لم يبـالوا أن يطبق الملأ الأعلى والملأ الأسـفل على تبجيـله والتنويه به فلا يعنينا من شوقى وضجته أن يكون لهما فى كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شـأننا معه اليوم وغدا لولا أن الحرص المقيت أو الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الأخلاقية من كل انسان وذهب به مذهبا تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الاعلان عن سلعة فى السوق والارتقاء الى أعلى مقاوم السمعة الأدبية والحيـاة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة أن يشـترى السـنة السـفهاء ويكم أفواههم ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على النـاس بالتهليل والتكبير والطبـول

والزمور فى مناسبة وغير مناسبة وبحق أو بغير حق فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ، وسحقا للمقــدرة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياء ، فان المجــد ســلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل للناس عقول ؟ !

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقى ممن لا يمدح الناس الا ماجورا . فقد علم الخاصة والعــامة شــأن تلك الخرق المنتنة نعنى بها بعض الصحف الاسبوعية . وعرف من لم يعرف انها ما خلقت الا لثلب الاعراض والتــسول بالمدح والذم وان ليس للحشرات الآدمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبنــاء وذوى المآرب والحزازات . خبز مسموم تستمرئه تلك الجيف التى تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الأرض . فى بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جــوعا أو تواروا عن العيون . هذه الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق أصحابهــا تكيل المدح جزافا لشوقى فى كل عدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل الأسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جــديدة والا فالقصائد القديمة المنســية فى بطون الصحف ، وان لم يكن شــعر حديث ولا قديم فالكرم والاريحية والفضل واللوذعية ، وان ضاقت أبواب الدعاء والاطراء نقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال عليه بالشتم ويعير بالتقصير عن قدر شوقى والتخلف عن شــأوه . وهكذا حتى برح الخلفاء وانهتكت الدسيسة . والعجب ان يتكرر هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج الى أن يفهم كيف يحتــال شوقى وزمــرته على شــهرتهم ومن أى ريح نفخت هــذه الطبــول .

وشرفاء الناس كافة يتبراون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ويعلمون انها آفة وأى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمهــا

وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، الا شوقى . فانه يعتدها آلة شرف واحدوثة حسنة فهو يغمس نفسه فى تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى أن ينصب عجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الأوباش فى خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ويود أن تكتم عليه . ونقول فى مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية وشمم أفذاذ العبقرية . فاما أن تكرم البطالة كما تكرم جلائل الأعمال ، وأن يدعى الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة وأن يتنادى الى الاحتفاء بناهشى الأعراض كما يحتفى بمهذبى الأرواح وهداة العقول ، وأن يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التى لا يبدو قرارها ... ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟ شعراؤها ــ الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال الأسمى لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحا لاعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزءا ... الا انه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى بجمهوره واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخر الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده أجرة سوقه واختلاسه . واقسم لو فعلها رجل فى أوربا لما قدر أن يمكث بعدها أسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مغبتها أدبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر، ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر، ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شىء ولا يؤنف فيه من شىء ، ولا يصد المرء أن يخلع فيه عاريا الا اتقاء طوارىء الجو وعوارض الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءا تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى مم يستنكف فى سبيل بغيته واى باب لا يطرقه تقربا الى طلبته . والحقيقة ان تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد بة كل مورد واذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم.

نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد فى مركز أمكنته من قضاء هذه اللبانة اذ كان اشبه بملحق أدبى فى بلاط امير مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل وتتحاشى أن توسع صفحاتها لنقده كما توسعها لنقد غيره . وانت اذا قلبت الصحف القديمة رايت فيها مئات المقالات فى نقد الأدباء المشهورين كتابا كانوا أو شعراء ولا ترى اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثن مقالتين او ثلاثا بدأ بها المويلحى نقده فى صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ، وهذا ادعى الى الريبة ، وكان فى امانة شوقى وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والأدباء فكان شوقى يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالأدب ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه فى الصحف ويلغطوا فى المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا اسماءهم واحدا واحدا واكثرهم احياء يرزقون . أضف الى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم اياه فى العادات الخصوصية والمنادمات الليلية ، وهم غير قليل ، ومن أعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك :

اولهم محمود سامى باشا البارودى (لأنه باشا عتيق) وثانيهم اسماعيل صبرى باشا (لأنه أحدث عهدا بالباشوية والوزارة) وثالثهم أحمد شوقى بك (لأنه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك

ابراهيم (لانه احرز الرتبــة اخيرا) ويلي ذلك خليل افندى مطران (لانه حامل نيشـــان) نطائفــة الافندية والمشائخ وهلم جرا كانما يرتبونهم فى ديوان التشريفــات لا فى ديوان الآداب ! ! ! فبـــذلك وما شاكله اعتاد الناس ان يسمعوا اسم شوقى مشفوعا بافخم الالقاب غارقا فى صيغ الاطناب والاعجاب . وكانه يخشى أن ينسى الجمهور اليوم ما وصف به امس فلا يرضيه الا ان تكرر تلك الصيغ فى كل مرة يذكر فيها اسمه . ففى كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وامير الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شعرى ما ضرورة هــذا التكرار كله ان كان مفهوما بذاته ؟ ؟ ولمـا رسخت هذه الالقاب المأجورة صدقها العامة واشــباه العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها ــ ولم لا يصدقونهاويرددونها واكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم انمـــا يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟! فان كان فى الأمر موضع للعجب فهــو أن تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقــدا ــ مع ان الاغراق فى الثنـــاء احجى أن يغوى بالمنافســـــة ويكثر من النقاد . ومتى علمت عــلة السكوت فقد زال موضع العجب .

واظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المعذب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فاصبح لا يقنعه أن يعلل بالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن الى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة الاجادة معروفة !! وما اطول عذابه ان لج به هذا الوسواس !! وان المحنة لتستدر الرحمة ولكن ارحم النــاس خليق أن يضحك ممن يخال انه يعقم بطن الطبيعة ويســـد الآذان ويضيق رحب الفضــاء بالاجــرة .

ولو شئنا لاتخذنا من كلف شوقى بتواتر المدح دليلا على جهله بأطوار النفوس فان الآذان اشد ما تكون اســتعدادا لقبول الذم اذا

شبعت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة . واذا تعود الناس ان يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن انسان تاقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة واكبر ذنبه عندها انها افرطت فى محاباته ، فهل يدرى شوقى انه يؤجر اذنابه على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة فى مدحه ؟؟ انه لا يدرى ولا يبرىء المريض أن يدرى بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ،فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن اسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأسا من صلاحها فى هذه الأيام . اذ يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس أقدارهم الا ريثما تتكشف اسرارهم . ونقول لشوقى ان سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكربه أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا ابرد عليها وغرة قيظها . وانه ليلذ لنا ان تكون نحن حربه وبلاءه وان نستطيع الادالة للحق من الباطل فى غرض من الأغراض فانها لذة نادرة فى هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان ابلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا ، واضر ما يكون اذا كان متخذا نموذجا للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الامر أن يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن أنها قصيدة رديئة فان الذوق والتمييز اذا اختلا لم يكن اختلالهما فى الأدب وحده . وانت اذا استطعت ان تهدى الطبقة المتأدبة من امة الى القياس الصحيح فى تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح فى كل شىء ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الأمم تختلف ما تختلف فى

الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها اجمعه الى فرق واحد : هو الفرق فى الحالة النفسية او بالحرى الفرق فى الشعور وفى صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض علينا فكرا وقولا او صناعة وعملا .

فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحدود او القاصر على القشور ولكنه من أعم أنواع الاصلاح واعمقها . وسنتناول شعر شوقى قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الأثر جليا فى تحول الآراء وسلامة القياس ، وسيرى القراء أننا نغلظ له البلاغ ونصحه صخا شديدا . وكذلك ينبغى أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالمعقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الأفواه وتسخير المأجورين . على اننا لا نحتاج أن نقول أن ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارىء ليقتنع بما نقول فاننا لا نسأل أحدا اقتناعه . ومن كان يحتكم برأيه الى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا ان نوجه لمثلة كلاما . وانا لبادئون : ـ

رثاء فريد

أصاب شوقى حين قال ان قصيدته فى رثاء فريد من خيرة قصائده . فانها فى مستوى أحسن شعره الأول والأخير ، وهى صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهتف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجرا فى بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذى كان يشتهر به الشاعر فى تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التى لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضى عهد ركاكة فى الأسلوب وتعثر فى الصياغة تنبو به الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب او الشاعر أن يوفق الى جملة مستوية النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعذبه الافواه لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمات ومرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الأساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة — فاذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القارىء « كالماء الجارى » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالاجادة فليس للأجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوى الحلو » وهذه هى قدرة شوقى التى مارسها واحتال عليها بطول المران والتى هى مزية قصيدته فى رثاء فريد وفى أحسن قصائده .

مضى الجيل الفائت وجاء جيلٌ بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة واخرجت المطابع مئات الكتب التى

صاغها أقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الأسفار الأفرنجية أو اطلع عليها الناشئة فى لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفنى أو الأدبى . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارىء أن يبحث عن المعنى بل لا يكفى القارىء المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله . فمزية شوقى عند هذا الجيل الناشىء من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لتبحث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقى اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة ذلك الصدى ، وطفق أذكياء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة فى ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغترارا بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا اصاب شوقى » ؟؟ ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيرا من هذا الشعر ،وقد يعزون الاختلاف الى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى ، وحديثه الذى يغصبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون — لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الأمس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب فى ذلك ولا فى بقائهم على احلال شوقى محله الأول مع انحدار شعره فى نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعادة التى لم تتغير منذ قدروه للمرة الأولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمد شوقى فى مكانه لأنه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس فى نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس أن القارىء يرتقى فى الاختيار اضعاف ما يرتقى الشاعر فى الأداء والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الأربعين فان اخصب أيام

الشعر ايام الشباب . واذا ارتقى فانما يكون ذلك باحتثاث الطبع وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من الناس داعيا الى ابتغاء المزيد وقد علم اصحابه أن زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد احس شوقى بالتغير من حوله فآده ان يستدركه واعيته الزيادة فى سن التقهقر فعوضهـا بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته فى فريد وقرىء له فى نقدها مالا يحب بهت على ما سمعت وقال : تلك قصيدة أردت بها الكلام فى فلسفة الموت ...

فلننظر اذن فلسفة الموت التى استنبطتها حكمة شوقى :

تعود ايها القارىء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ما هو أخس من بضاعتهم وابخس من فلسفتهم ـ كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز اذ ينادون فى الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ، الذى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا التقاه » الخ ... الخ .

تلك أقوال الشحاذين وهذه اقوال (امير) الشعراء .

كل حى على المنية غاد … تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الأولون قرنا فقرنا … لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم … غير باقى مآثر وايادى

الخ ... الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار ونزع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه احط من ذلك معدنا وأقل طائلا وأفشل مضمونا . والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية « كالزبيب من العنب و ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرا . وأكثره أتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه واثباته

سواء او بيت حذفه أفضل ، مثل اخباره بأن جر النعش فى مركبة او حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زيدت جلالا　　منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذى ما احسب احدا يمر بقبر فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة فى نفسه هزؤا وعبثا . وذاك حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو　　علم الحق او منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر فى جغرافية شوقى الأخروية : « انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق الآخرة لئلا يضل احدهم النهج او يصطدم بصخرة فى دروب الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم ايقاظا ونياما كأنما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها　　اجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الموت الى أهله وتخطئته الذين يزعمون غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها احزاب الفلسفة ولم يفرغ الناس يوما من بحثها وتقليب وجوهها والتنقيب عن اسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقى ففض الخلاف ببيتيه هذين .

سر مع العمر حيث شئت تؤبن
وافقد العمر لا تؤب من رقاد
ذلك الحق لا الذى زعموه
فى قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان أهل الميت اذا مات فى برلين او لندن أو الهند لا يزالون يترجون يوم أوبته ، ويعدون أيام غربته ، وكأن العلماء فى

كل قطر وبلد يتساءلون أمن مات غريبــا عن دياره أيؤب الى أهله يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتما بالعافية أو لا يؤب ؟؟ فكان فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى أن جاء شوقى فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا يؤب » فانحسم الاشكال وقطعت جهيزة كل خطيب :

قال ناقد أديب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه قائل المثل العامى « اعطنى عمرا وارمنى فى البحر » وانه كان أسوأ منه تعبيرا واقل ظرفا اذ يخاطب القارىء بقوله « أتفقد العمر » وذلك العامى يتلطف أن يجبه الناس بهذا الخطاب ونقــول : ان توارد الخواطر معروف مسلم به من جهــة ، ومن جهــة اخرى فان من يتجشم لأجل الانسانية أن يغوص على هذه المسائل العويصة ويسهر الليالى فى فض مغلقاتها وحل مشكلاتها لحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا يكلفوه أن يأبه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل أبيــات شــوقى التى لم يرد فى فلسفة الشحاذين مثلها ــ فمن هذه الأبيات نبأ عجيب فحواه أن فى العالمين نعشا واحدا تنقلهم أعواده من عهد عاد .

تستريح المطى يوما وهذى تنقل العالمين من عهــد عاد

فان لم يكن يعنى هذا ويزعم ان الأمم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد تنقل عليه موتاها فسبحان من يعــلم مراده . والا فان كان يعنى ان هذه الخشبة التى ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد فأى شىء لا يمكن أن يقال فيه ذلك ؟؟ اية مطيــــة لا تنقل العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال أى انسان لا يقول اليوم أو بعــد مائة جيل انه ركب مركبــــة فرعون ونام على سرير قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا وطــوت من ملاعب وجيــــاد

شاعر عصرى ولا شك !! الا تراه يدين بكروية الأرض ؟؟ ولكننـــا

نخشى أن لا يكون شوقي قد ذكر الكرة الا ليذكر بعـدها الصولجان والملاعب والجيـاد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منـه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيهـا واعجميها . وانت اذا نقلت هذا البيت الى أية لغة لم يكن معناه الا هكذا : « هذه الغـبراء أسقطت من أيدى الملوك قضبا كثيرة ودثرت ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وابادت خيلا لا تحصى » — فما أشبه الحكماء بالمغرورين ان كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة .

ويقـول :

تطلع الشمس حيث تطلع صبحا
وتنحى لمنجـل حصـاد
تلك حمـراء فى السـماء وهذا
اعوج النصل من مراس الجـلاد

اليوم لا تخشى بغتة الأجل فى كل حين !! فالشمس لا تضرج بدم قتلاها الا حيث تطلع صبحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء . اما ان طلعت فى الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصـادا الا فى أيام الالهة أو المحاق وفيما عدا هذه الأويقات لا قتل ولا حصاد فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربى فلا تصدقوه فان موته باطل ...

الا ان شعرا يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغـة العرب الا زغل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم ان يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو اعوج

ممقوف فطلبوا له شبها ، وهو اغنى المنظورات عن الوصف الحسى ، لانه لن يهرب يوما فنقتفى اثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم هو كالخلخال ثم رأوا ان لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأوهام . وافتن قوم فقالوا هو كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر الى حسن هلال بدا
يهتك من انواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟؟ هذر فى هذر . وجاء شوقى فقال انه منجل يحصد الأعمار فاخطأ حتى التشبيه الحسى لأن الاعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب ، واما فى سائر الأيام. فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الارض :

والغبار الذى على صفحتيها دوران الرحى على الأجساد

وذلك من قول ابى العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا باس بهذا التمثيل ، واقترض للطحن رحى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده الاستطراد ، فعز على شوقى الا ان يكون لهذا الطحين غبار وان

يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحى . عنـد هذا يركد العقل ويجم الكلام .

ولم افهم البيتين الآتيين بعد قوله : « تلك حمراء فى السماء .. الخ »

ليت شـعرى تعمـدا واصرا
أم اعـانا جنـايـة الميـلاد ؟
كذب الأزهـران ما الأمـر الا
قـدر رائح بمـا شـاء غاد

يعنى الشمس والقمر . فما التعمد والاصرار وما اعانة جنـاية الميـلاد وما الفرق بينهما ؟؟ ايريد أن يطبق على الأزهرين المـادة القانونية : مادة القتل عن تعمـد وسبق اصرار ؟؟ وفيم كذبا وكيف يكون جريان الشمس والقمر فى حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما للقدر الرائح الغادى ؟؟ وهل التعمد والاصرار واعانة الميلاد الا رواح القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ اسئلة لا جواب عليها ولا لوم فى ذلك على شاعر الانس والجن فلعل هذه من أبياته التى صنعها لاخواننا الجن واختصهم بها دوننـا .

ويقول فى نعش فريد او حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لهـا الزمـام لجاءت
وحـدها بالشهيد دار الرشـاد

اما دار الرشـاد فهى مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقى ولا كما اراد التاريخ والاثر . وإما معنى البيت فيقـول شوقى ان نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسعى وحـده الى مصر !! لله ما أقدر رائى الشموس على احالة الجليل مضحكا والتقديس زراية : نعش يسعى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضي ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جادا لا يلوى على شيء قبل بلوغه ، والنـاس متنحون عن

طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته .. افمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والاجلال ؟؟ الا ساء ما اصاب ذكرى الرجل من اجلال شوقى . اراد ان يقول كما قال البحترى :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما
في وسعه لسعى اليك المنبر

فكبا كبوة حاطمة .

ولقد طمح شوقى الى معارضة المعرى فى قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا فى شعر العرب على خير منها فى موضوعها . والمعرى رجل تيمم هذه الحياة محرابا واجتواها غابا وصدف عنها سرابا ـ لابس منها خفايا أسرارها ، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها ، وحواضر أطوارها ، فاذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبيله . وأين شوقى من هذا المقام ؟؟ انه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره واعمق ما هبط الى نفسه من آلامها اعراضة أمير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر فى فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا نكبر قصيدة المعرى تعصبا للقديم وايثارا للعرب على العجم نلقى اليه ها هنا درسا فى الشعر قد ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها والوانها . وان ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وانما مزيته ان يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع وانما همهم أن يتعاطفوا ويودع احسهم وأطبعهم فى نفس اخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . واذا كان كلك من التشبيه ان تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما

زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة اشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فان الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والالوان من نفس الى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا ان صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان احساسا بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطىء فى نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره : فان كان لا يرجع الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسوسات كما تعود الأغذية الى الدم ونفحات الزهر الى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما أخال غيره كلاما أشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فان تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى التى اجترأت على معارضتها .

نظر المعرى الى سر الموت فلم يره فى مظهره الضيق القريب ، حادثا متكررا تختم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة العميقة . رآه كما بدا منذ القدم لبداته الحكماء وأصحاب الأديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس ومانى : حربا سرمدية قائمة بين قوتين خفيتين ميدانهما كل نفس حية وكل ذرة فى طباق الأرضين وأجواز السماوات — هاتان القوتان هما الخير والشر أو

هما النور والظلام أو هما الحق والباطل او هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعوان لاتنى تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان ان كان للزمان ختام .

نظر المعرى الى العالم الارضى فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نحبا مقضيا ما احس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما فى كل كيان قائم ، متقادما فى كل ركن متقادم :

كل بيت للهــــدم ما تبتنى الور
قاء والســـيد الرفيـــع العمـــاد

وعلم ان القوتين اللتين هذا اثر نضالهما فى الأرض فاعلتان هذا الفعل لا محالة فى أشرف كواكب الســماء واسماها ، وأضوأ عوالم النور واذكاها .

زحــــل اشرف الـــكواكب دارا
من لقــــاء الردى على ميعــــاد

ولنار المريخ من حــدثان الدهــر
مطف وان عــــلت فى اتقــــاد

والثريا رهينة بافــتراق الشمل
حــتى تعـــــد فى الأفـــــراد

لا بل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين متلاحقين فى كل حال .

واللبيـــب اللبيـــب من ليس
يغتر بكون مصـــيره للفســـاد

---

(١) الكون هنا وفى البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم

وكانت العبرة التى استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق أفراح الانسان واحزانه ، ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

غير مجد فى ملتى واعتقادى
نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى اذا قيس
بصوت البشير فى كل ناد

واذا ذكر متاعب الحياة فكأنما يذكرها ليصرفها عنه بنظره القانط المستخف فيقول :

تعب كلها الحياة فما اعجب
الا من راغب فى ازدياد
ان حزنا فى ساعة الموت اضعاف
سرور فى ساعة الميلاد
اسف غير نافع واجتهاد
لا يؤدى الى غناء واجتهاد

كذلك كان احساس المعرى بسر الموت ، وهو اوسع احساس قدر لبشرى أن يحسه من ذلك السر الرهيب .

اما انت فقد نظرت فماذا رايت ؟؟ لعلك ادرى بما تنظر وترى ولكنا نقول لك ما لست تدريه . انك لم تر شيئا يحتاج الناظر فى رؤيته الى غير الحواس ــ انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوى المعرى بين وكر الورقاء ومعاقل العظماء وبين منازل الارض ودارات السماء . أردت أن تعمم كما عمم ففاتك مغزى تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى قشوره ، اذ ما علمنا بين الحضر والبدو من فرق فى التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما فى حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادى لأن احدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار او انقطاع

الاخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادى لمثل هذا السبب . واما قولك يموت من فى الحاضرة والبادية فكمدك الناس اسما اسما وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى انه لو صح ان يقال هذا فاى فضل فيه لغير الحواس واى دليل فيه على اللب الحكيم والطبع القويم ؟! وتقول فى القبر انه منار المعاد .

وزمــــام الركاب من كل فــج
ومحــــط الرحــــال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟! وتقول :

وعلى نائم وســـــهران منهــــا
قــدر لا ينــــام بالرصـــــاد

وهذا كذلك بل أضعف اما قولك .

لبــــد ســــاقه الــردى واظـــن
النسر من ســـهمه على ميعـــاد

فما احسبك تدعى فيه لنفسك اكثر من فضل السرقة .

واذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمـدنا الى مقارنة الابيـات المتشابهة فى القصيدتين الفيناك تخطىء فى كل بيت تسرقه من المعرى او تاتى بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .

المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحـــدا مرارا
ضاحك من تزاحـم الاضـــداد
ودفـــين على بقـــايا دفـــين
فى طـــويل الأزمـــان والآبـــاد

وليس اجل ولا اصدق من هذا الشعر . وان تعبيره عن تعاقب الدفين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتزاحم الاضـــداد وقوله ان

اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان فى وصف تهكم الموت بالأحياء وعبث التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك ان تحاكى هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى التراب احسن عـدلا
وقيـاما على حقـوق العبـاد
نـزل الاقـوياء فيـه علـى
الضعفى وحل المـلوك بالزهـاد
صفحـات نقيـة كقلـوب
الرسل مغسـولة من الاحقـاد

التراب ينصف العبـاد ويصون حقوقهم أحسـن صـيانة لانه يبيدهم جميعا !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذى لقيه أضعف العباد من اقواهم واظلمهم أشد من هذا الانصاف والصيانة ؟؟ ويخيل اليك أنك ابدعت حين قلت ان الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى ان الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟؟ فان كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقلته لغير غرض ـ أما المعرى فقد احاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق او بلاغة الاسلوب حين قال :

وعزيز على خلـط الليـالى
رم اقدامـكم برم الهـوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لا لعب فيها .

وعندك ان طهارة القلب هى موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيا مغسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب أن لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟؟

يقول المعرى :

خفف الــوطء مــا اظــن اديم
الأرض الا من هــذه الاجســـاد

وانت تقول :

والغبــــار الذى على صفحتيهــا
دوران الرحى عــلى الأجســـاد

المعرى يسأل :

ابكت تلــكم الحمــامة ام غنت
على فرع غصـــنها الميـــاد

وانت تأبى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكى فتقول :

ضاق عن ثكلهـــا البـكى فتغنت
رب ثكل ســـمعته من شـــاد

ثم يروقك وانت تبـــارى المعرى مبـــاراة المضحكين ان تزعم لناجيتك ولنفسك انك نظمت فى فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة فى آية من آياته !!

على انك قد تعذر بعض العذر فى تصورك من هذه الناحية لأنك مجبر فيه لا مخير . اما الأمر الذى لا نعلم لك منه عذرا فأن ترثى رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضــا ، وأن لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولو كان ذاك لضيق فى مضطرب القول او لنقص فى بواعث الأسى على الرجل لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم أن مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك فى قضـــاء حقه وتوفية قدره لا يكون الا لعجز أو كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلأحنــة لا تزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وانت بأسبابها اعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع فى الهجاء ، او ينوى الدم فيأتى بما ليس يفهم منه غير الثناء . واشد من ذلك ايغالا فى سقم الذوق وتغلغلا فى رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو فى موقف التأبين والرثاء والعبرة بالفناء .

ولست أدرى اى ما جن من نظامينا قال هذا البيت فى رثاء احدى العيان :

رحمة العود والكمنجا عليها
وصلاة المزمار والقانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمج منه الهذر فى مثل هذا الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الفناء واقدار ذويه ـ اسلم ذوقا فى بيته هذا من شوقى فى رثائه لعثمان غالب . لأنه تعمد الهزل فقاله وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء .

ضجت لمصرع غالب ... فى الأرض (ملمكة النبات)
امست (بتيجان) عليه ... من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لفيـ ... ـبته واقعدت الجهات !!!
فى ماتم تلقى الطبيـ ... ـعة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الأرض) من ... جزع موائد كاسفات

والزهـــر فى أكمـــامه يبكى بدمع الغـــاديات
حبست أقاحى الـــربى والعهد فيها مومضات !!
وشقائق النعمـــان آ بت بالخـــدود مخمشات

بل تما لا مراء فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر بوعده لنفسه واغتبط بما دب عليه من المعانى الدقيقه والنكات الأنيقة ... لأنه اسـتطاع ان يذكر الزهر بمناسـبة ولو فى غير موضعها ، ولعمرى كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر أو الثمر كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . يذكرهما فى غضبه ورضاه ، وفى لهوه وبلواه ، ، وفى فرحه وبكاه ، وفى غيظه وهواه ، وفى يقظته وكراه ــ ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الآهلة ، وحين يروى عن النعمة السـابغة أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفــن ، مدلها بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقــل انها صفراء كالاقحوانة ، أو المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلى من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، أو قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقى لم يوف هذا الغرض فحسب بل أرانا أن الازهار لا تجرى على سنن المجاملة فى النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هى غرس يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تذيل دمعة أسفا لفرقته وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والذوق المليح فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقانا ، ولين القصدير ذوابانا ، الى آخر ما هنالك من ألوان العذاب التى تلم بالمعادن الصلاب ــ ولو كانت النكبة فى عالم « جيولوجى » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقـول (مثلا) ان الطبقة الرملية فى ناحية كذا تجثو التراب على رأسها فزعا ورعبا»

وان الطبقة الجيرية فى موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وان هذه الطبقة او تلك ساخت بها الارض او تزلزل بهـا الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء فى شاعر جليل فانه ابقـاه الله لن يقنع باقل من الحـاق الزحاف والاقواء والخبن والسـناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت او تقال من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذى الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون، واى تفسير او تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر التـدابة فى صهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعـواء الكلاب ونقيق الضفادع لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه فاننا ان احتملنا حداد الألوان والاشكال فلن نطيق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لابد من التضحية ، لابد من الفقدان والخسارة فى هذه الدنيـا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الانسـان ان الاشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التى ما برحت قاعدة فى مكانهـا منـذ الأزل ، ولا من الهين ان يحشر الطبيعـة « لا اكثر » فى مأتم تكون فيـه احدى النائحـات « فقط » ولا من اللعب أن يصل فى كل ساعة الى ابكاء الرياحين والأزهار والمعـادن والأحجار ــ ولا سيما النفسية منها ــ كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكى يقول الرجل الفانى منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعـانى العميقـة ، لا غنى له عن التضحية بالذوق السـليم والوصف الصـادق والتخيل الصحيح والشـعر الجدى والشعور القوى ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنـه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهـه امتعاضـة حزن أو مسحـة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مبالاة . . . تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا غثا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول هذا صحيح ولكنـه قال ما اراد أن يقول وتفنن وروى . أجل !! انه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذى يرثيه اولئك السذج البلهاء ، الذين يحسبون أن الاخصائيين اذا ماتوا فجعوا احدا غير المواد التى

تفرغوا لدرسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا أودى أحد أولئك الاخصائيين اسفوا ووصفوا أسفهم هم عليه (مباشرة) ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب السحاب تارة أخرى ، أو يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها وامواتها واحيائها ويجعلوا النفس الانسانية أو نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس فى هذا الكون بفقد عزيز ! !

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد فى الابانة عن براعة شوقى وافتنانه ، والاشادة بخلابته وبيانه . لولا اننا آثرنا أن لا يفوتنا سؤاله عن أنواع من النبات لم يسمها فى تلك المناحة التى اقامها ـ ماذا كان من شأن القطن باصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء فى ذلك المأتم العميم الذى كانت الطبيعة فيه احدى النائحات « فقط » ؟؟ انه سكت عن هذه الأنواع وغيرها فهل ذاك لانها لم تكن من اتباع النباتى الكبير أم لان من خواص تلك الانواع التى يعلمها الشعراء ويجهلها النباتيون انها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟؟ أم لعلها لا تنتمى الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالمرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان ؟؟ أم هو الصدق فى الخبر والأمانة فى التبليغ أوحيا اليه ما قال فذكر فريقا وسكت عن فريق : رأى الرجل الاقاحى باهتة ذابلة على غير عهدها وابصر شقائق النعمان تخمش خدودها فابرا ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئا قربا بشعره من شهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟؟ تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا أهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنا منذ الآن أن نرقب أعين كل جامد ونابت وحى ، حاشا الانسان ، تعرفا لجلائل الأنباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ويطير بها النجابون ، ولو اننا عرفنا ماذا ينبغى ان تحلو الامة من موت الاخصائيين من رجالاتها ، وانها مسئولة ان تضن بأرواحهم مخافة ان تمتقع نرجسة أو تسود فحمة ...

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء العــالم الطبيب فقال مفصلا مقسما :

امــا مصــــاب الطــب فيـــه
فســـل بـــه مـــلأ الاســـــاة
اودى الحمــــام بشيخــــهم
ومآبهــــم فى المعضــــلات
ملــقى الـدروس المســفرات
عن الغـــــروس المثمـــرات

والقارىء يرى انه لم ينح نحــوه الأول . وما كان ذلك بلا ريب استهجانا له او توبة عنه وانما خانته القريحة وخذ له الاختراع . والا فماذا كان يمنعه ان يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة ــ مثل هذه الأبيات .

طــــربت لمصرع غـــالب	فى الأرض رســـل الحميــات
قد مات (غــالب) جنـــدها	فتمردت بعـــد (الممـــات)
امســت جراثــيم المــلاريا	من ســـرور (ظاهـــرات)
وتفـــرق التيفـــوس والــ	تيفود فى كل الجهـــــــات
وتالب المكـــــروب والــ	ـــبكتريا بعــد الشتات
وبكت قـــوارير الصـــيادل	بالدمـــوع الســـــــائلات

فهذه ابيات ليس لنـــا من فضل فيها سوى فضل التقليـــد للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فليل لنا فيم اخطأنا المحاكاة وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكأننا بصاحب « الامتيـــاز » الأصلى يعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة فانه ليس أغص للنفس من فرصة يلوح لها تأتيها بعد معالجتها واليأس منها .

كذلك يؤبنون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتهكمون ؟؟ وأما والله لو توخى هذا الذى شمر لتأبين عثمان غالب ان يمازح الرجل بكلام يعــرض له فيه بعمله وصـــناعته مسترســلا فى الدعابة مستهترا بالمجون متبسطا فى الفكاهة لما استطاع ان يضرب على أوقع من هذه

النغمة . فليت شعري بأي ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟؟ أبذوق الشاعر المفطور الذي يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر ، والذي لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟؟ يقولون أن اذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر ينبغي أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان ـ أحدهما لا تحسه النفس الا في أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح ، والثاني انما يخامرها في أقدس مواقف الموت وأجلها : موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته .. ألا الا هكذا فليمت الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن في دار الخلود .

مه ! مه ! أن من السخف لما تعافه الجبلة وتتقزز منه النفس تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذي تمنونا بلادة الاغبياء بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع واقذره لانه كالورم الذي يخيل الى الغر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززا أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين في بقعة واحدة فاشمازت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لا يروقهم الا لما فيه من غثاثة وعوار ـ خلائق كل ما نستطيع أن نعلل به هذا الاعوجاج في طبائعها وأذواقها انها تلفت لفرط ما أخلدت الى الكسل والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التي بقى لها أن تعنى بها وتكترث لها ونغلت لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر وذل الحوادث والحاح الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء للازب شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبها العجز عن احتمال الجد والتمادي

فى الهزل واللجاج فى السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للذوق السليم فأصبح جهد الذوق فى زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الترف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الذوق الانسانى وحسن استعداده وانما هما نقيض هذا الذوق واقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية — ألا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش أحشاءهم وتقضم عظامهم وتلغ فى دمائهم وهم يسمعون أنينهم ويتلذذون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب !! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان فى ذلك العهد !! كانوا فى عهدهم الذى بلغوا فيه من الترف ونعومة الاخلاق مالم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الذوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات الا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد انه توفق هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية
الله احيا الروميات

يأمر الشاعر المرثى أن يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية ... فيحسب السامع أن الآية التى سيراها الدفين بعد بعثه أعجب واخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم أن الاعجوبة التى يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هى النظر الى ميت يبعث ... فهل سمعتم فى العى والاحالة ما هو أحمق من هذا اللغط الفارغ الخاوى ؟؟ أليس هذا كايقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض فى المسارح للمتعجبين ؟؟ وعلى

ان بعث العلامة المدرج فى أكفانه أغرب وأشـد استحـالة من بعث الموميات التي يعنيهـا شوقي لان موت الأمم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الأفراد حقيقى لا رجعة منه فى هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الأستاذ غالب أن يرى « الموميـات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه فى ضريحه ، لا لشىء الا أن يرى المعجزة التى قد رآها ... وبعـد فليـذكر شوقى أن الذين يدعوهم بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فان كان هو شـاعرا لأحد فهو شاعر الموميات ، وان كان لشهرته حـد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك الموميات .

خـرجت بنين من الـثرى
وتحـركت منـه بنـات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » باقامة الأموات !! فهو ينادى عثمان « قم تر آيـة » ويصيح بسليمان « قم بسـاط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الامام شأمتـا « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشـهيد فريد « قم ان اسطعت فى سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره .. أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من فى التراب !!!

ولم ينس شـوقى براعة المقطع فختم القصـيدة بأليق بيتين يتممان ما فيهـا من خطل الادراك وضـلال الحس ، وهذان بيتـا الختـام .

الفـكر جـاء رسـوله
فاتى باحـدى المعجـزات
عيسى الشـعور اذا مشى
رد الشعوب الى الحيـاة

ففى كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول أحيانا . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما فى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يفطن الى هـذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئا واحدا ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحيـاة هى التى تنشىء الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفوا لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به انها تكسة ادبرت بقائلهـا ثمانيـــة قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك ايها القارىء شاعرا من شعراء الغــرب هبط مصر مستطلعا اول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافهـا ويتحرى عجائبها ويستكنه اخلاقها وشمائل نفوســها من آدابهـا وفنونها ، الى أن سيق اليه ضنيعة من صنائع شوقى فأسمعه أن ها هنا شاعر يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقبـــا مزدوجا ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الأرض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الأقدمين والمحـــدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين ــ الى أشباه هذه الألقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحـــد كائنـــا من كان فى العالمين : وقد تعلم أيها القـــارىء أن أذكيـــاء الغربيين وخاصتهم لا يألفون الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شـــاعر كشكسبير أن يدعى شـــاعر الأقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والأرض والسماء ، وان كان لأحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أو جيتى بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه ــ مسوغ لهذا اللقب . فلابد أن يلمح الشاعر الغربى فى تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا . بيد انه يجب

ان يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وان يعرف المعانى والمثل العليا والخيالات التى اذا نطق بها الشاعر وجد فى مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وان يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هى قصيدته فى استقبال اعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الظباء السائرة فى الرمل ومن جماعه الظباء .. » وهو ترجمة قول شوقى :

اثن عنــان القلب واســلم به
من ربرب الرمــل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم ان فصائل الظباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم فى هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها وعرامها . ويود لو يرى هذه الأوابد الافريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه فى ذلك فاذا الجواب حاضر يلقى اليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس فى بلادنا ظباء مخيفة ولا اليفة ــ ما الى هذا قصد شاعرنا ، وانما هو يعنى النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فاننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية » .

نقول : ولا يبعد ان يرتضى الشاعر الغربى هذا التشبيه على

أنه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكني لا ادرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما أشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذاك الافتراض : « ولماذا ؟؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين » .

فيفاجأ الرجل ويجد انه قد أحال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضا ان يحيل التقليد فى الغزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك فى نهضة الأمة ليكونن اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز فى العقول : فأما ان الشرقيين وكبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا أحب السلف العربى الى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون ... وهو مستحيل . وأما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون فى ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرىء من قلبين فى جوف واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه أخذ يفهم بعض الفهم ويقول لمترجمه : « أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « ان الغربيين كما يتسلون أحيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين او يتزيون بزى الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم أن يتسلوا

باحتذاء أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الغابرة . رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة» .

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها اخانجي والفارزا . ويظن انه يكذب عن شاعره المزدوج الألقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضاً وانما نظمها فى مستقبل امة ناهضة .. وتحية لزعمائها ..

الى هنا ينتهى العجب باليقين ـ فان كان الرجل قد ارتضى التقليد فى التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة ببابا وقلب الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله أن يرتضى استهلال الكلام فى نهضات الأمم بالغزل صادقا كان أو مستعارا ، وأن يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلاء ، تمهيدا للثناء على مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وأن يئن ويتوجع ، فى حيث يفخر ويترفع ، وأن يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح والاهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وأن اعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج أن يظلم أو يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معذوراً .

* * *

ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربى لأن فهم هذه البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم بساطتها أن يفهموا على أى وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح عليها . والا فاى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ربقة

التقليد لا يشعر لأول وهلة بالخلط الشائن فى هــذا الضرب من الشعر ؟؟ ما الشعر الا كلام فان كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه اجمل وأبلغ وأحسن وضعا للمعانى فى مناسباتها . فهل يتكلم الرجل فى السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل ان يخلط فى قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام فى نسق واحد ؟؟ فلو انه كان صادقا فى عشـــقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!



لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نوى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكى هواه ، هجيراه كلما راح او غدا حبيبه يحن الى لقائها أو صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر فى الأغراض التى من اجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدى ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لســانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الأمراء والأجواد فى أقاصى بقـــاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يبداونها احيانا بوصف ما تجشموه فى سبيل الممدوح من فراق الأحبة وألم الشوق وطول الشقة وأحيانا كانوا يصفون الناقة التى تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطــوى ومواصلتها الليـــل بالنهار سعيا الى الممدوح كنـــاية من الشوق الى لقـــائه ، وكان الغرض فى الحالتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل فى مثوبته ، فكان الابتـــداء بالغزل ووصف المطى فى قصــــائد نظمت فى المديح

وما شاكله من اغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والأستاذ فأقاموا المتقدمين أساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يفدون على الامصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع فى هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وافرد كثيرا من الغزل فى قصائد قائمة بذاتها واشهر هؤلاء ابو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك فى العظائم كما صنع ابو تمام فى بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفى رائيته التى اولها .

الحق ابلج والسيوف عوار ... فحذار من اسد العرين حذار

وكما صنع المتنبى حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتتحا :

ذى المعالى فليعلون من تعالى ... هكذا هكذا والا فلا لا
حال اعدائنا عظيم وسيف الد ... ولة ابن السيوف اعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الراى قبل شجاعة الشجعان ... هو اول وهى المحل الثانى

وكما صنع الشريف واضرابه فى كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار او انعدم ونشأ من شعراء الحضر جيل كان احدهم

يقصد الأمير فى المدينة وانه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التى اجتازها والمطايا التى انضاها وحقوق الصبابة التى قضاها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله فى مطلع كل قصيدة حتى فى الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول ابواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال .. ، يجىء شوقى فيتماجن ويتصابى فى مطلع قصيدة يتنظر بها مستقبل امة ويقول فيها :

قد صارت الحال الى جدها   وانتبه الغافل من لعبه

ويجىء اناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وانه عصرى بل انه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذى استحل لأجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداع وان حق عليه اللوم لوضعه فى غير موضعه — ولكنه هو الغزل الرث الذى ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه فى وعاء هذه المعانى التى نضج بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعى العروض لم يقل فى وصفه : « قد يتثنى كالبانة » « أرداف مرتجه كالكثبان اى كاكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالأقمار أو كالنجوم » . «مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » الى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هى روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه . فاما الموضوع فلا نقول فيه سوى انه مقالة منظومة كسائر المقالات التى نشرتها

الصحف يومئذ لولا انها متناقضة متدابرة وانها خلو من الاسباب والحجج التى بنى عليها الكاتبون رايهم وأما الكلام الشعرى فيه ففى بيت القصيد او بيتيه وهما :

قطارهم كالقطر هز الثرى وزاده خصبا على خصبه

لولا استلام الخلق ارسانه شب فنال الشمس من عجبه

وانه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان اشعر الشعراء ولكن (مكره اخوك لابطل) .

ولا اسهب فى التعليق على البيتين ولكنى اروى مشاهدة يتبين منها القارىء مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وان فى الأطفال اللاعبين خيالا افطن وتمييزا اصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الامريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن اشدها غرابة المطاردات الجامحة التى تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والأوانى . وهى كثيرة لا اظن زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها ـ حضرت منظرا من هذه المناظرة فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة الى أن وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكا . وما أخالهم الا كانوا مصدقين ما يرونه وانما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال ... فليت شاعرنا الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم أن طيران القطار بقاطرته

ومركباته فى الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل أن يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شابا فوق الرؤس فى طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وارساته يمنعونه ويكبحونه — لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والأمر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا انهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية : « الحمد لله الذى لم يخلق للجمال اجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ » .

أما ان القطار كالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيه لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأى قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر اكبر من المنفعة . على انه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس فى الحروف . وهكذا تتعلق اشعار المقلدين بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعانى . وشوقى كما قلنا فى أول المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا فى غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق أحدا يتقبله ويحله المنزلة التى أحلته فيها لجنة الأغانى والألحان . فان ألمنا به الماما فى طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهى توقيف بعض القراء على قيمة احكام اللجان ، وانها فى أكثر الأحيـان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والأدب فى مصر فقـد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما فى أوربا فربما بلغ من تهـاون الأدباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليهـا بالخط العريض « لم تجزها جامعـة كذا » كما صـنعوا برسالة شوبنهور التى كتبهـا فى الأخلاق وقدمهـا الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد .

تصدت لجنة الأغانى للحكم فى اناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة ــ وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة فى واحد منهـا . فمن شروط الحكم فى الأناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الألحـان على المعانى ، مطلعا على اناشيد الأمم ، بصيرا بأخلاق الجمـاعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأى والعـدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضـاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟؟ اننا نعرف من بين أعضائها أناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم فى علومهم ونراهم أهلا للحكم فى أعضل المشكلات التى

تفرغوا لدرسها . بيد ان التفوق فى شىء لا يفيد التفوق فى كل شىء. واذا علمت ان الرجل من الاخصائيين يقضى العمر فى فنه باحثا منقبا ثم تعرض له المسالة فيصيب ويخطىء ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فاحر بك ان تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم يدع الحذق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق ان بعض أعضاء اللجنة عرفوا فى الجلسة وقبلها نشيد شوقى المقدم اليهم غفلا من الامضاء ، ولا ندرى لم تكلفوا اغفال اسمه ورأوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر فى الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء الى رفضه ؟؟ بل لا ندرى لما ارجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقى نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا؟؟ أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع انشودة واحدة ؟؟ ولقد كان النشيد على افواه الممثلين فى احدى الفرق يلحنونه ويروضون انفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الاوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر فى اناشيد مجهولة ، واسرار مكتومة ؟؟ فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقى وحرصها على اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مآخذ وعيوب ، نبه اليها بعض الفضلاء ، وردته الى صاحبه ليجتهد فى اصلاحه قبل اذاعته من قبلها . وذلك أن عضوا عاب قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ... فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدن ؟؟ ... الخ الخ

وقال ان البيت الثانى منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح

ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والنيل بالكوثر ؟؟ فوافقوه على انتقاده . وانكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومعناهما:

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفنا الصليب على الهلال

واقبلنـا كصف من عوال يشـد السمهرى السمهريا

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى أن احدهم قال : اننا نجعل مصر وطننا يشترك فى حبه ابناؤه ، واما ملة ذى الجلال فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال » وهو انتقاد سديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟. انما يقال اتحدوا فى الوطن واتركوا الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة « كصف من عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا نحمل تبعتــه . ويظهر أن النـاظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت .

نموت اليك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفدى حيـا

وكانوا قد اخذوا عليه قوله « نموت اليك » لانها لم تسمع فى كلام صحيح فلم يستطع اصـلاحها بأحسن من أن يقول « نموت رضاك مصر الخ » — وقد نشر كذلك فى صحيفة الأخبـار — فلم يقتنعوا . فجعلها اديب فى النسخ الأخيرة «نموت فداك» فاقتنعوا !!

ونذكر ايضا انه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين جىء بهم ليحكموا فى اى الاناشيد أصلح للفخر القومى واشد اعتلاجا فى النفس وابتعاثا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديروه فى اللحن الذى يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه

الوانى لتضطرم نفسه عزما ، واليائس فيهجم الى الأمل قدما ، والعدو فيتضعضع قلبه رعبا وغما .. وليكون اللحن صوت الامة فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر اين ذهبوا بهؤلاء المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟؟ وهل فيهم من يروى بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغى ان تكون الموسيقى ؟؟ لقد علم كل انسان ان ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ولكنها اصوات الذل والضراعة وألحان ينشدها النائم فلا يستيقظ ويسمعها الصاحى فينام .

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار بخلد احدهم انه على غناه يطمع فى مائة جنيه يحتجنها لنفسه فكان يهم الأعضاء أن يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من اعضاء نادى الموسيقى ، والنادى بحاجة الى اعانة المتبرعين .

ولا ننس أن اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل اليه هدايا شوقى . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال رأيه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف أصحابه انه يتقى أن يرمى بالحسد ان أومأ بالنقد الى قرينه . ومن غرائبه انه كان ينحى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما أعلن الأستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت .

وعلمنا غير ما تقدم امورا لا نحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين للحكم له أو عليه ، وليكن قياسنا اياه أن نلتمس فيه ابسط الخصال التى هى قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الاناشيد القومية .

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون

وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لســان الشعب وموافقا لكل زمان . وهذا ابسط ما يطلب فى اناشيد الأمم . فهل نشيد شوقى على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس فى النشيد بيت يدب له الدم فى عروق منشده . وكل مفاخره افرغت فى قالب هو أقرب الى الأخبار منه الى الحماسة . واقواها قوله :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حــدثانه اخــذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نماما اوائل علمــوا الأمم الرقيــا

وليس فى هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لا تجد مثلها فى قول من يقول « كان لى بيت سعته كذا من الأذرع . بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، الى آخر أوصاف المســاحة .. » فأى فرق بين قص المعلومات والحماسة اذن ؟؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه لم عن اعنات المقيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا واستعصى الوزن ووالقافية على صاحبنا حتى صـير « سئلت » سيلت و « تهيأ » « تهيا » و « شيئا » شيا : نعوذ بالله من الشي .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنى مصر مــكانكم تهيــا فيهـا مهـدوا الملك هيــا
خذوا شمس النهار له حليـا الم تك تاج اولـكم مليــا
على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعـــز ركن
اليس لكم بوادى النيــل عدن وكوثرها الذى يجرى شــهيا

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هــذه المناقشــة ؟؟ أ اجنبى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطأ شوقي مطية الفلسفة والمواعظ بعد ان ركب حمارها ببيت واحد سوقي المعنى وهو قوله

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فراح يجري عليه ذهابا وايابا في كل مكان ومقصد . حتى طلع لنا بأذني حماره الفلسفي هذا في موعظته « على الأخلاق خطوا الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك أو شمالك .. فكأنما كان شوقي على رهان أن يخالف قواعد الأناشيد ما أمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق لا لأن نشيده كان كما وصفته اللجنة « اكفاها واوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق لنشيد قومي مصري » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للأناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق في هذا المضمار .

وفي المقطوعة الاولى خطأ تاريخي ما أظرفه في نشيد امة تفتخر بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . وأما تاج الفراعنة الأول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحري ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الأولى في المدارس الثانوية ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة او التي يرمز بها الى العبادات ولم تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجان .. فياحبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنوانا على جهلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارىء أن نأخذ على شوقي مبالغته في قوله : « خذوا شمس النهار له حليا » فاننا لا نحاسبه على كلمة له فيهما وجه تأويل .

وأما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا تتخطى به في جميع العصور أن يتهيأ مكاننا . وان لا نبرح نشرع في التمهيد ونأخذ

فى الاستعداد وتبدأ برسم خطط الملك وتهم بتشييد الأركان ، وما علمنا شاعرا قوميا يطلب اليه أن يكون فأل الأمة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جمودا لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الآنفة ، واجهل ما يكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعتسا البصيرة أن يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومى ، أى دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترتله فى البيعة أو تشدو به فى الكنيسة أو تصلى به فى المسجد ، فيخيل اليه انه اذا جمع فروق الأديان كلها فى جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض . فيستشفع فى دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبى الحق » فيكون ماذا ؟ ؟

يكون ان الاسرائيلى يحرم هذه الصلاة فى بيعته لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد ـ وان المسيحى لا يدعوا الله به فى كنيسته لأنه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الاسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب وان المسلم يصلى به وحده فكأنه لم يشر فيه الى دين غير دينه ، وان الدعاء القومى لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو ان طاهيا صناعته تجهيز الموائد قيل له ان ثلاثة من المدعوين فى الدار ليس يشتهى احدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج اطعمتهم كلها فى صحفة واحدة لطرد من فوره فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهاة ويغرق فى غفلة الذهن حتى أحسبه أحيانا يتعمد الأمعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضى به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الاديان أجمع كى تكون شفاعة لكل دين ، عمد الى لصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لا يناسب هذا المقام ، والذى

لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدرى شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟ ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد فى خفراء الريف كياسة تمنعهم ان يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، او يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية فلا هو فى الشعر ولا فى النثر شاعر قومى موفق العبارة : وقد قراناهما لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطؤه فى النشيد أخف واهون ، من حيث أن الاناشيد لا يصلى بها فى المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد اننا لا نرى معنى لزج الاديان فى الاناشيد الوطنية ، فقد كان يكون ادل على الوفاق أن لا نجعل وفاق الأديان مباهاة ومأثرة ، لأن المرء يباهى بالشىء النادر او غير المنتظر وهذه الأمم المتحضرة والمتبديه أليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟ ؟ أتراها لا تحب أن يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا اننا لا نقصد الى الافاضة فى نقد النشيد ، فكننا نقارنه بما نعلمه من الاناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخذنا من مساوئه ما اخذنا فليس يسعنا ان نهمل مأخذا سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك انهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا

فلما آل للتاريخ ذخرا

نشأنا نشأة فى المجد اخرى الخ الخ

ويقولون أن التنوين لابد أن يسقط فى الانشـــاد فيخلفه المـد وترجيع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد فى موقفه والملحن فى صنعته

نقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هذه الامة شعارا ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة ــ نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه احد فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشـــيد الثانى ومن أجتراء اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رايهم . ولا أخفى عن القارىء اننى ما كنت اظن فى جمهور قراء الأدب اســتقلالا يقاوم تآمر المحكمين والصحـافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنـة ونزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشـــدين المنشورين ، وفى هذا الاستقلال امل نغتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومي

رأينا ان ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقي ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذى يخشاه شوقي من التفات الأذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر بعد شيئا من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الأرض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى على أحد . وقد اتصل بنا انه كان ثالث الأناشيد التى اختارتها اللجنة فاذا حسبنا للمحاباة حسابها جاز أن نقول انها حكمت بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارىء التفاوت بين النشيدين حتى فى الخصلة التى اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب هنا أشبه بمناجاة النفس وهى فى نشيد شوقي مخاطبة أجنبى معتزل للشعب الذى يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بنى النيل واحفاد الالى
اطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الأهرام والعالم لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم
اذكروا ان ثرى هذا البلد
من تجاليد الجدود العظماء
لا تطئوها ارجل العادى الألد
وبكم أبناءهم بعض الذماء
تربها التبر المصفى المنتقد
لا الذى يقني الشحاح الأدنياء
فامنعوا كنزكم ان يبذلا
او تعيشوا عمركم عيش عديم

لن تروا فى الأرض عنــــه بدلا
ما لكم كنز ســوى هــذا الأديم
****
اذكــروا ان عليــكم واجبــا
لبنينــا فى بطــون الأعصر
فاحفظوا هــذا التراث الواصبا
فهــو حق الوارث المنتظــر
نتقــاضى الأرث عصرا ذاهبــا
فلنصــنه للعصــور الأخــر
ســنؤديه اليهم اكمــلا
لم يغــيره زمــان او خصيم
فحمى مصر تحــاماه البــلى
وبنوها خــير من يحمى الحــريم
****
اذكروا حاضركم كيف يقــام
ليس يغنينــا تليد القــدماء
ما التماثيل المهيبــات الجسام
وابو الهــول رهين الصحــراء !
ما المســلات على باب الرجام
والنواويس وفيهــا الموميــاء !
ما عظــيم تالد من العــلا
فى ثنــايا حاضر غير عظــيم !
فاجعــلوا عهد العــلا متصلا
كاتساق الدر فى العقــد النظيم
****
اذكروا مهمــا بلغتم ســؤددا
انكم لم تبلغــوا أوج الكمــال
ابعــدوا فوق المنال المقصــدا
فبنو الشمس لهم اقصى المنــال

كم عبـــدنا قرصهـا المتقـــدا
فاتقـدنا فى حمـــاس ونضــال
نبتنى الهيـــكل يتلو الهيـــكلا
خالدا فى ساحـــة الرمل مقـيم
وســـيبقى موطـن الشمس الى
يوم لا يبقى لهــــا قرص ضريم
****
اذكروا ان التفـــانى والغـــلاب
فى ســبيل المثل الأعلى البعيـــد
نفثـــا فيـــكم وأنتم من تراب
شـــعلة غراء من معنى الخـــلود
شــــعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا فى النفس هذى الشعلا
اضرموها تكفـــلوا الفوز العميم
مثلمـــا اضرمت النـــار على
مــــذبح الرب بمحراب كــــريم
****
اذكروا ذلك وامضـــوا قــــدما
لا تكن وجهتنــــا غير الامــــام
تزدجينــــا دقة القلب كمـــا
يقـــرع الطبل لجـــرار لهـــام
فنســـوغ المـــوت ذودا للحمى
ونذيل العمـــر ســــميا واعتزام
فبحـق نحن احفـــــاد الألى
اطلعـــوا الفجر لتاريخ قــــديم
رفعوا الأهرام والعـــالم لا يبتنى
الا خصــــاصا من هشـــــيم

عبد الرحمن صدقى

صنم الألاعيب (١)

شكرى صنم ولا كالأصنام . ألقت به يد القدر العابثة فى ركن خرب على ساحل اليم ـ صنم تتمثل فيــه سخرية الله المرة وتهكم « ارستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على جعل مصابها فكاهة النـــاس وسـلوانهم . و ـ لم ـ لا يخلق الله المضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها واشــعرها الحاجــة اليها ؟! ولم يلتزم فى الانسان مالا يتوخى فى سواه من وزن واحــد وقافية مطردة ؟!

هنالك اذا على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى بهذا الصنم . وكأنما ارادت أن تبعث على تدبر القدرتين : هنا ثبج مزبد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحياة متجددة وأواذى متوثبة متولدة ـ وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهـدلت بهـا عـذبات الأشجار ، ولا يملأ صـــدرها حسن الآصال وروعة الاسحار . ولا يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آنق الأزهار ، أو الغمائم ترسم فى صفحة السماء المقلوبة ابهى الصور أو الخضرة فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذيوعها وانتشارها بل « وثبها » من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر مدى البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر

فى الصباح البليل وقد اثقلت اكمسه الانداء فتساندت رؤوسها كأن سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .

كلا ليس فى كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك هذا الصنم لأن باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس بنفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا ان تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا اغنيا عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين أنقاض حياته يتوهم انه ملهب الموج بسياطه ومدير الأفلاك بتدبيره وحكمته . يقول كلما اعجبه شكله أو حاله أو أثاره نبده واهماله « أنا اله الشعر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه الأمواج برش من سخرها وتسك أنقابه برعد من ضحكها فما اجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر اذا كانوا اسلم فطرة من أن يكترثوا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين واذا تركوه غارقا فى طوفان من الأوحال النفسية مدفونا فى قبر من بكمه العجيب . وأى بكم اعظم مما اصيب به هذا المنكود الذى لا يكفيه أن يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا ورسولا بدين هداية فى الأدب ؟

وأنت أيها القارىء قد تعلم أن سر النجاح فى الادب هو علو اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء وان على من يريد أن يشرح دينا جديدا « لأطفال » هذا العالم او ان يحدثهم بما احب اسلافهم فى سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه أن يذكر انهم لم يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاسمراوه وانه لكى يغريهم به ينبغى له أن يتوخى القوة فى العبارة عما يريد فان الناس خليقون ان لا يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان .

وقلما ظهر كاتب او شاعر الا بالأداء وكثيرا ما يمتاز بعض

الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن آراء غيرهم كأبى اسحاق الصابىء كاتب الملوك والأمراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب فى تاريخ العقــل الانسانى والذين يســتطيعون أن يستغنوا الى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجة الى ضرورة فن الاسلوب .

ولعل هذا اكبر الأسباب التى افضت الى خمول شكرى وفشله فى كل ما عالجه من فنون الادب لانه لا أسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره فى كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شيء من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه أن يرى أن يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل » كما يقول الرياضيون ــ من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس أصداء متقطعة لاصوات مالوفة لا رموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك فى موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا أن شكرى على كثرة الشكوى فى شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمى للاشعار مقتدرا (؟) والقوم فى غفلة عنى وعن شانى
هــذى المعانى تناجيهم فما لهم لا ينصــتون بافهــام واذهان ؟

وتعزيه بأن الزمان سينصفه ويديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان الى حكم الأيام فى قوله :

ارمى بشعرى فى حلق الزمان ولا ابيت منــه على هم وبلبال

مجاراة للمتنبى وتقليدا له فى قوله :

انام ملء جفونى عن شــواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

نقول يخيل الينا ان شكرى لو شاء لفطن الى سر هذا الخمل وعلة ذلك الاهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهم فقد بحثوا فى شعره على شيء جليل يروع اوْ حسن يلذ ويمتع أو مستظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة فلم يجدوا عنده غناءهم والفوه يريد ان يجعل نفسه هزؤة السخفاء وضحكة الفارغى القلب والعقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر الالمانى الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية كلها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارىء الا أن يحس انه أصاب موضع الداء . اما شكرى الذى أراد أن يقلد هينى والذى زعم أن العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وان « ادرج » فى قبرى قتيل الحب واليـاس
فمن يصـدح بالشعر ومن يسخر بالنـاس

هذا الساخر العظيم والصيدح الفريد والرسـول الجليـل لا يطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله الى سمو قلق وانما غاية ما يرجو فى حياته أن يفوز به على قدر ما استطعنا ان نستوضح غرضه من ايماءاته الخرساء — وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهدأ ثورته اذا بلغه هو أن « تمر به الحسان فترتضيه » !! هذا هو دينه الذى يدعـو الناس الى عبـادته ولا ينفك يشـكوهم الى الزمان ويشتمهم ويرميهم بالغباء لأنهم لا يستمعون اليه . أليس هو القائل فى بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه :

كفانى من نبيه الذكر انى تمر بى الحسـان فترتضينى

ولا أدرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز فيه انه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه فى معرض تمر به فيه وتجسسه بعيونها واكفها كما يفعل الصبيان باللعب والصور ؟ وما ذنب نصف النـاس على الأقل اذا كانت هماتهم ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى انه عجز عن ايضاح هذا الفـرض الضئيل اذ من الذى يستطيع أن يفهم شيئًا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج ان يقول فى نفس القصيدة التى انزل فيها دينه على الناس واطلقها من قيود القافية ــ والوزن احيانا ــ لكيلا يعوّقه عن التحدر شيئًا معاتبا الغرام :

انقصـــينا ونحـــن مقـــربونا
من التبيان والأدب الغـــــزير

ولعمرى ما عدا الواقع فى قوله انه مقرب من البنيـان والأدب ولكن التقرب منهما شيء وورود شرعتهما شيء آخر ، وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شيء يعوق الطماح فيخطى الأجل ويصمى الافلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب القول و من يقول فى صفة المشنوق :

ضاقت الأرض عن مآتمه فاء تاض عنها برقة الملحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله ــ أن كل ما فهمناه من البيت هو المقصود ــ أن المشنوق سيظل معلقا فى الفضـاء الى الأبد أو أن الارض تضيق عن شيء من المآتم أو المحامد أو أنها هى التى لفظته وأعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن شكرى متكلف لا مطبوع وأن ما يزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد فى الشعر باطل انه هو نفسه قال ينعى على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم .

« واذا صلب احد الأمراء قالوا ان قاتليه اجلوه فلم يرضوا له القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الارض عن ان يضم علاك من بعـد الممات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الاكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر فى قلب الحقائق واظهار الذميم مظهر الحسن .. وليس ادل على جهل وظيفة الشاعر من قرنهم الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر لها وليست حلاوة الشعر فى قلب الحقائق بل فى اقامة الحقائق المقلوبة ووضع كل واحدة منها فى مكانها الخ .

فما أحلى هذا الكلام وأصدقه وما أبعد قائله عن العمل به وأدناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول « كله عبثا لا طائل تحته » أو ما جدره أن يكف عن دعواه أنه من رجال المذهب الجديد فى الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء باعترافه . أترى هذا المفتون يحسب أنه يستطيع أن يخدع الناس بهذه النظريات التى ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع الذى ينعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن أنه يكفى أن يلوك المرء جملا كالببغاء ليكون فى نظر الناس حديثا سائرا مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر أن هذا هو الذى يعتقده شكرى فينا تراه يقول فى مقدمات ديوانه « أن الشاعر الكبير (مثله بالبداهة) يخلق الجيل الذى يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له فى بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

يبيت النـــدى فوق الزهور مرقرقا
كما انبعث الطـل الرقيـــق ليقطـرا

أو قوله فى فلسفة « تزاوج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرســهما
ومهـرها الحب لا يغـلو لها المهـــر
من لى بنفس أرى نفسى بهــا مزجت
كما تمــازج فى وديانها القـــدر
والنفس فى عيشــها شـتى منــافذها
منها القلوب ومنها الســمع والبصر

(المقصود هو البيت الأخير) فأى جيل يريد هذا المائق أن يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السير كما ينطقها هو) اما كفى ان فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب ان يوجد من امثاله جيل برمته ؟ وأى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ وأى خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كأننا والماء من حولنا ... قوم جلوس حولنا ماء !

وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلى أن نورد للقراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال :

ناصر صروف الدهر مستقبلا ... قفاه لو جزته اقرع
فجز من لمته خصلة ... لعلها من خلفه ترفع
فالدهر إن اقبلت ذو لمة ... لكنه من خلفها اقرع
مطلعه مثل طلوع المنى ... وحسرة ما خلف المطلع
ولا ترم بالذم صفعا له ... فانما يصلع اذ يصفع
قراعه مثل قراع الظبى ... وانما يقرع اذ يقرع
فاطل قفاه بمداد لعل اللون من روقته يخدع
وغض عنه نظرا واعيا ... فانما يعديك ما يطبع
وان جرى فى الدم كره له ... فخير ما يجدى لك المبضع
حجامة لا شك فى نفعها ... وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صحبته انه ... بالرغم من صلعته اروع
واحن له الراس لكى لا ترى ... فانها من خلفه تلمع

ونحن انما نمثل لكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التقريب لان له أبياتا مبعثرة فى اجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا لا منبوذا كما هو الآن . وما بالعجب أن يكون له بضعة ابيات

مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون أبله لجرى لسانه بجملة او جمل تلمح فيهما أثر العقل . وان كان لم يفكر فى ميلفها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الذاهل المضطرب انتباهات فجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفا فى الذهن واضطرابا فى جهاز التفكير لم تنفع فى معالجتهما كثرة القراءة والاطلاع على خير ما انتجت العقول . وقد يعلم القارىء أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدى اذا كان الاستعداد مفقودا وكان الذهن غير مستو أو صالح « لهضم » ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد بالموجود ـ كالمعدة الضعيفة لا ينفعها أن تزحمها بألوان الطعام وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه ايضا) بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغبا فى أن يفكر كل فكر » ولكن ما به ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكرى ولعله من أسباب ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة والمردة والجان لما وقع فى نفسه من ان هذا حقيق ان يقوى خياله ويجعل له أجنحة يحلق بها فى سماء الشعر وفاته هو وأمثاله أن الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة وأن كل كلام ليس مصدره صحة الادراك وصدق النظر فى استشفاف العلاقات لا يكون الا هراء لا محل له فى الادب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش فى عالم الشعر ؟

وليس فى الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفى العمق لان العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء ولكن مع الوضوح والجلاء اذ أيهما أحوج الى النور يراق عليه ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهى تمتد وتعثر به الرجل وهى تخطو

أم ما يغوص عليه المرء فى اغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل اما على العجز عن الأداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة فى ذهن صاحبها .

على أنه من أفحش الخطأ واضره بالاستعداد واشده افسادا للفطرة ان يتلكف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمال فان العقل الصغير اذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل الى غايته من طريقه ولا يحس الحاجة الى قوة العقل الكبير .

وقد ركب شكرى هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن وأراد أن يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الأول وظن ان الاجتهاد يغنى غناء الاستعداد فلا هو بلغ اية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على خلقه الوادع وقناعتــه بميســور العيش ومنزل انزله الله وحال البسه اياها .

ولما كان السقم فى الكلام مرده السقم فى الذهن فسنبدأ نقدنا بالدليل الضمنى المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب ببيان الفساد الذى اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصى سرقاته واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

* * *

لا نقول ان شكرى مجنون فنحن ارفق به من أن نصدمه بذلك واعرف بحاله وبأمراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء والتذكير والالحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر — خاطر الجنون — وأن فكرته ماثلة لجو حياته والخوف منه منغص عليه كل لذاته وعلالاته وانه حتى فى طعامه يتوخى ما يظن أو يقال له انه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسمك والبيض والمخ واشباه هذه الالوان — وان ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل فى روعه انه هو المعنى به فيمتقع — ولا يخفى أن اتجاه الذهن له دلالة خاصة وهو قرينه قلما تخطىء اذ لماذا ينصرف المرء

الى خاطر بعينه لا يعدوه فى روحاته وغدواته وفى طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وفى أقواله وكتاباته من شعر ونثر - أو منظوم ومنثور على الأصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخذ به وحده فى البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . وأكثر أهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ والجنون والعبقرية بسبيل وهما فى الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما متماثلتان ، فالعبقرى ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات يتمخض ابدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والأصوات والألوان لا تفطن اليها عقول الاوساط . والمجنون فى ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط فى بعض نواحى المخ أو فتورها او قابليتها للتنبيه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا والجنون عبقرية . وقد فطن الأقدمون الى هذه العلاقة ولحوها وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج - كما يقول افلاطون - الشعراء والمخترعين والأنبياء أما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيذ صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغى أن يتوهم أحد أن العبقرية هى الجنون فليس أفحش من هذا الخطأ ولا أقتل من ذلك الظن لأن العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادى وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب فى التوازن العقلى والعصبى .

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءا من ديوانه فى شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه أن يتمه فى وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى أن يخب به المرض ويوجف

بعقله الداء فلا يستطيع أن يصدح بالشعر ويسخر بالناس » ! !
وماذا اجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكانما هو حجر وقع فى بئر فلا هو « صـــدح » ولو فى حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقلة .

والى القراء امثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » .

حنيني الى وجه الحبيب جنون جنون يهيج القلب وهو شجون

وقال من قصيدة الدفين الحى :

فهاج هياج الشر فى الأسر طرفة وادركه حتى الممات جنـــون

وقال من قصيدة غاية الحب :

وان كنت عنـدى جئت بالعقل والحجى
وان لم تجىء فالقلب مجنون ثائر
ولكن وجدى منك جن جنـونه فها انا من حبى بحسنك هاتر

وقال فى « طبع الانســان » :

ان بالمرء جنـونا جاعلا نوبة الشر فيـــه تحتدم
لا ينال البرء من نوبتــــه او يذيع الشر منه والالم

وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت معـدى عـن لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى ملامح لا تخفى تناديك بالجهر

اذ من الذى يستطيع ان يدعى ان فى كل وجه ملامح من الجنون ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرىء غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون » :

عسى ان تجـــن النفس فيكم جنــــونها
فلا ذكـرة تصبى ولا فكـــر يخطـــر
فان جنـــون النفس ســـعد وراحـــة
وان عنـــاء الحب ذاك التـذكر

فانسـاك حتى لست ادرى اعائش
على الأرض تسعى ام دفين معفر
فان يبلغ الحب الجنـون فلا تلم
اما كل مجنـون على الهجر يعذر

وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان فى وسعه أن يطلب الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكرب احدا منهم خاطر ملح أو وهم جاثم ولو انه سال طبيبه لعرف منه أن بعض المجانين يعذبون انفسهم بما يتخيلون وانهم كثيرا ما يخلقون لانفسهم جحيما من الاوهام يصلونها ،على أنا لا ندرى من أين جاءه ولماذا ظن أن حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون اذا بلغ الحب ذاك؟ ولكنه معذور على هذه السفسطة على كل حال والناس كذلك معذورون اذا لم يقرءوا نظمه .

وقال من قصيدة « صنم الملاحة » :

بلغ الغرام الى الجنون فلا عتـاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وادركه مس الجنون واظلمت عليه السماء والنهـار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغوك » :

بالله ما تفعل لو بلغـوك انى عرتنى جنة من هواك
وكيف لا يذهب لبى والهوى اذا مضت لى اشهر لا اراك

ومن قصيدة « انا مجنون بحبك » :

انا مجنـون بحبـك فازل غـلة صـبك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنـون خابل يزدرى المرء له وقع التهم
انما الحب جنون وجـوى ورجاء واجتـرام وندم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بانه هو مجنون الى نسـبة

الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر أيضا . قال من قصيدة « جنون الحياة » :

لا ترع فالدهر مجنـــون ... كل حى فيــه مغبـــون
جن من حــول ومقدرة ... وكذا ذو الحول مجنــون
فتضاحك ثم قــل ابدا ... ان هــذا الدهر مجنون
دهــرنا دار المجـــانين ... كل حى فيــه مســـجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكنت اعد الحسن فيك فطانة ... وان جنونى فى هواك صواب

ومن قصيدة « وحى الشعر » :

كجنون النعيم والبؤس فيهم ... وهى تبـــدو لغيرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله « أى عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فانا أشهد الله والناس انى لا أحس هذا الجنون . ولكنى أحسبه سينكر على الشاعرية لهذا على الأقل . وقال من قصيدة « مشترى الأحلام » :

لو يستحيل المسحيل على الورى
وانال من احـــــلامه ما اطلب
لجننت جنــــة قادر متحــكم
يرضى على هـــذا الأنام ويغضب

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة صوت النذير :

ام ضحكة الرجــل المجنون من حزن
لشد ما نال منــك البؤس يا رجــل
حتــــام تنـــكر حقـــا غير مشتبه
لا يكـــره الحــق الا من به دخـــل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه اياه راجعا الى اى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وان بقلبي من جفـــائك جنـــــــة
فان رام يوما قتلكم ما تاثمــــــــا
فاسقى جنـــونى من دمائك جـــرعة
وهيهـــات يجدى القتل قلبا مكلمـــا

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه الى الاجرام فتحرى البعد عنه فما اشقاه ! جنونه يغرى حبيبه بالهجر والهجر يزيد فى جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة والى أى حال ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما فى الاجزاء الاخرى . ولم تنقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان هناك ابياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

امشى (احدث نفسى) عن محاسنكم
حتى يخـــال حديثى لغو نشـــوان
نشوان ليس له عقـــل فيسكــــته
الحب خمرى وليس الخمر من شانى

فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقـــوله وهو ادهى :

واهتف طول الليل باســـمك جاهدا
وهاجس هـــذا الذكـــر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا فى الهتاف ويعترف بأن هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن انفسهم

ضاع منهم تحت اشــلاء الرمم

... الخ الخ

وليس الأمر بمقصور على جولان هذا الخاطر فى نفسه وملازمته اياه ابدا وعلى الصياح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب فى الطريق كالسكارى والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وان الحيـاة نفسها جنت والدهر كذلك وان لكل شيء جنوناً مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفىَ مجاذيب وان الناس كلهم مرضى كما يقول :

فى كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كانما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا ان الأمر كما وصف والحال على ما زعم وان كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الامر بمقصور على ذلك فان شكرى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو ـ تساهلا فى التعبير ـ مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا انه يسمع اصواتا او يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما حسب درجة الحالة فاذا أصاب العين رات ما لا وجود له فى الاذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الاصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس فى القوى المفكرة وان كان لا شك مع ذلك فى انه اضطراب محلى فى المخ اذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب بعض حالات الجنون « هذيان الاذن » أى اعتقاد المصاب انه سمع أصواتا أو ان أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب فى برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تســـير فى الطرقات واشباح الآدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا

تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأل بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكرى ـ أعاذه الله من شر ذلك ـ فى الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

او كنور البدر فضيا له وتر فى القلب فضى النغم

« ما رأيت القمر الا احسست كأن نواقيس تطن فى أذنى . وان الذ الأنغام رنة الفضة المجوفة » اهـ

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى أنه فى كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى اذنه صوت نواقيس فضية ولنا ان نلاحظ امورا :

أولها ـ أن البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لأن معناه مفهوم بدونه

وثانيها ـ أن ما (يطن) فى أذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض ـ بتقريره أن الذ الانغام رنة الفضة المجوفة خصوصا وان رنتها « ليست » الذ « الأنغام » وان كانت « أخلص » الأصوات وأصفاها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغم . نعم أن الصفاء من عوامل الحلاوة فى النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار ـ مع التسامح فى عد الرنة نغمة ـ لا يمكن أن يعد « ألذ » الأنغام .

وثالثها ـ انه كلما رأى « ضوء القمر » طن فى أذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة وأهل الاطلاع والملاحظة أن « ضوء القمر » مقرون فى أذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان

صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء فى الذهاب الى إنها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب فى طائفة من الأعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول فى هذا الباب ولكننا قد اطلنا وان كان التحليل ممتعا مغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزىء بملاحظة اخرى وهى أن لشكرى كتابين غير دواوينه احدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بانه « أحلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهى كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتبا روسيا فى رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى أن حلاقا ذبح زبونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فاغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهى فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية علي لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا أن نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تاليف او نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولأن جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانيا ولم تكن أمامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها ـ وهى كثرة مروعة ـ يرجع الى اينا ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليق أن يحمده الناس منه فلا يحاول أن يغالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الابكم الا وهى قادرة على الزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

الجـــزء الثانى

أدب الضعف

الأدعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالذباب يعيشون عيالاً على الادب وحميلة على اهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون الطنين في غير هذا القطر ولا يعدو جمهور الناس معهم ان يلحظوهم كما يلحظ احدنا العناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخادمه او ربة بيته ازيلي هذا واتي عليه بالمكنسة ثم لا يقولها حتى ينسى امره ويذهل عن خبره . اما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه ونقيضه . يظهر الدعي فيستولي على الميدان ويخر الناس له سجدا الى الأذقان ويباهون به الامم والازمان فان سألتهم في ذلك وعلته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحوا أبوابا من التعسف لا تستند الى أصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفند وجروا في أوهامهم الى آخر الأمد كأنما التوق الى أن تقر الامور قرارها وتأخذ الاشياء اقدارها شيء ليس في سوس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذي تتأتى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الآراء منه فان الداء عياء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون ان يصغوا لما يقال لهم ولا أن

يفتحوا للذى تبين أعينهم او يأخذوا لأنفسهم بالتى هى أملأ لأيديهم واعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل امر فى عمياء قصاراهم ان يكرروا الفاظا لا يعرفون لشىء منها تفسيرا ويرددوا ضروب كلام ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبيينا . وما لهؤلاء نكتب ولا من اجلهم نتكلف ان نكوى عرق الباطل ونخرس السنة الكذب والتدجيل وننقض بناء المنكرات والشناعات التى أقامها نفر من الأدعياء نشأوا فى غفلة الزمن فان من المستحيل أن نرجع بهم الى سنن التفكير والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكنا نكتب ونشرح وننصب الميزان لمن يحس انه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجيلهما فيها لا ليغمضهما دونها واوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يحب أن يستسقى الا من الصب او يأخذ الا من المعدن مؤثرا الغبينة والهزيمة والفشل على احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر الى أضدادها – لهؤلاء الذين هم معقد الأمل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى تكون أضوأ لها واكشف عنها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم الا بالاقتناع . اذ ما خير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة مستبين ؟ ؟

وليس فى مصر شىء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن الجرى مع الاوهام والذهاب الى أشنع الشناعات وأسوأ المنكرات ما عرض لهم فى الادب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ وجعل يتبع بعضها بعضا من غير ان يتوخى فى تنسيقها معنى فقد صنع ما يدعى به كاتبا وشاعرا ومؤلفا يضن الزمان بمثله ويعيى الامم مكان ندهِ . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى تنبيه او ان يتجشم احد منا اقامة الحجة عليه والتدليل مع التبسط

فى الايضاح وتحرى البساطة فى سوق المبادىء وتفصيل الاصول وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا رأونا ندلى بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار دستورنا معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبداءة غنيان ؟ أفلا يعذرون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهى تحسبها أدوات الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب وعمى العيون واعوجاج الأذهان .

ولماذا لا يرون من اعجب العجب ذلك الذى عليه الادعياء المقلدون فى امر الادب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد فى الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى الذى تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين اذا اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التى تتمخض عنها الطبائع الممسوخة والأذهان المنتكسة ؟ ان الجيد فى لغة جيد فى سواها والادب شىء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لأن مرده الى أصول الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك الغث غث فى كل لغة فى اى قالب صببته وسبكته وبأى لسان نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الآمال فى صلاح الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضلال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطي

عنى السيد المنفلوطي بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الاول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالى دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنينا هذا الأمر الا من حيث دلالته على طريقة السيد فى الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وامثاله على تأثير الالقاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما أرادوا ان يزفوا الى الناس عرائس افكارهم او يشيعوا إلى قبور صدورهم أموات خيالهم . واذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لآثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق وأملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق أن يكون على ظاهر الامر مقدما على سواه وحريا بان يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر رواياته وقصصه فى أثر هذا وذاك على أننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخيرة قبل الاوان توفية للحقوق وبيانا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقارىء على مبلغ سعة المجال .

* * *

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة واربعين عاما من ابوين كريمين كرما يثبته ان اولهما — ولا ندرى أيهما يعنى ولكنه احدهما على كل

حال ـ ينتهى نسبه الى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة ومنافس آدم بكثرة النسل « تفاقم » الذرية . وثانيهما الى اسرة جوربجى التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حظ النقد أن يزيد على هذا فى بيان نسبه الا أشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا تحتمل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد فى منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر » وأن أسرته هناك « مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدى الى معرفة ما هنالك ولكنا نحسبه خشى أن يضل القارىء ويختلط عليه الأمر فيتوهمه مقذوفا به الينا من المريخ ـ والحق أن له العذر فى خوفه هذا اذ ليس فى كتابته ما يدل على انه مثل ابناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها واداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته فنقول وليته .اذ عنى بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق الينا ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية فى تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بأنها « انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة من لا تعجبه أخلاقه ولا تجمل فى نظره أطواره . وعفة حتى عن مد يده الى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وأدب وحياء وحلم يظنه الظان عجزا وضعفا فاذا غضب وقليلا ما يفعل فهو الليث قوة وشجاعة وايمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب بلب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء سواه وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين ولا أحقر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس ابغض اليه من الكذب

وكثيرا ما كنت اسمعه (!) يقول « لا طلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل او يعجب برأيى البليد الى آخر ما لا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .

ولكننا بتنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الادب الجم الذى جعله — كما يقول — الكاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشئونه سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الأولى او التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها اسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية من عواريه .

وليس فى أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو كالسيد الشريف المسب لا يحدث الا عن نفسه ولا يصدر فيما يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن انفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجمهم ووصف آبائهم . وما للقراء ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا فى تاريخ حياته يقع فى اكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر أنه أورد اسم أبيه حتى ولا فى سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقد جعل وكده أن يشرح لقارئه أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتا تذهنه وهو ما يعنى قراء التراجم . أما الاجداد والآباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا يستطيع ان يعرف عنهم اكثر من الاسماء فخير له وللناس أن يسدل عليهم استار الخفاء حتى لا يجمع الى الجهل أو العجز نقيصة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على انه ان فاتنا هذا الذى كنا نحب ان لا تخلو منه الترجمة ولم نعتض منه الا ما هو منشوء ثقيل على النفس فان فيما كتب السيد الشريف الجليل العربى التركى الحسينى الجوربجى

المنفلوطي الكفاية فانه أعزه الله لم يألنا كشـفا عن آرائه واخلاقه وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهواجس خاطره ولم يضن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرب ويلهو ويلعب ولأى شيء يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه فى غنى عما يبدىء فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

ويالها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه بالصدق فيما نحلها من الشيم ! فهل تعرف ايها القارىء من اى ضروب الشجاعة هذه فان لها لأنواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شجاعة الطيش وانما هى شجاعة .. الطعام !! نعم والموائد الممدودة والاخونة المنصوبة . وانك أيها القارىء اذ تنكر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتزوى ما بين عينيك لتدل بذلك على أفحش الجهل وأفضحه بأسرار فعل الطعام . ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى ان يخشى السيد الشريف الحسيب النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض الوريقات القذرة ويملأ لهم بطونهم كنت حقيقا أن تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . اتراك لم تسمع بالمثل العامى القائل « اطعم الفم تستحى العين » ؟ وماذا صنع السيد أكثر من الجرى على السنن العامية فى كل شيء ؟ فى كتابته وفى معاشرته وفى اتقائه الالسن — وهذا هو السر — فاعلمه — فى انك لا تسمع به فى هذه الوريقات ولا تراها تلهج به مادحة ولا قادحة .

ومن ظريف ما نرويه فى هذا المقام ان السيد سمع بعزمنا على اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وارسل يلح علينا فى « تشريفه » فلم ينقذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف الغدر ونكران جميل مائدته الا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض الاحيان ؟

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق ان يعد من أجـله كاتب و أديبا الا اذا كان الادب كله عبثا فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيخونا المائقين يقــول : « ان فى أسلوبه حلاوة » ولو انه قال « نعومة » لكان اقرب الى الصواب ولو قال « انوثة » لاصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجى فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيرا . قال مهيار :

فيارب قد دمى مقتلى بما نظرت واعف عن قاتلى
هنيئا لحبك ـ ذات الوشاح. دم طل فيـــــه بلا عاقل
وحبى ذكـــرك حتى لثمـــــت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة ـ كلام مصقول لين الانحـــدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نثرته وتأملت ماتحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر ان وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما فى الامر ان صاحبه اراد القول فى هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد اعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجا الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط فى الرقة يكسب الجمال ويغنى عن الاحساس به فقلب كل شىء وحمل عينه

ذنب النظر الى الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا فى اللين وذهابا الى أقصى المدى فى الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا دم مطلول بغير عاقل وانما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول انه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطرى ويكفى لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا المنظر حادثا واقعا . وأمثال هذا كثير فى غزل المقلدين والعابثين لانهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا فى سبيله الرجولة والعقل . ومهيار بعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين مذهب العرب فى الشعر ومذهب الآريين ـ أو الفرس فقد كانوا لا يعرفون الا عربا وعجما . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح اذا غش تجار الاشعار ما جلبوا
يشكرها الفرس فى مديحك للمعنى وترضى لسانها العرب

فكأنه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ واكبارهم شانه وذهاب غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى فى حلاوته وعذوبته كقوله :

اذكروا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نزحا

وقوله :

آه على الرقة فى خدودها او انها تسرى الى اكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع فى هذا فما ظنك بالمتأخرين والعابثين الذين افتنوا فى العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للانسان انهم كانوا يتبارون ليروا ايهم اعظم تطليقا للعقل واتيانا بالمستحيل ونسيانا لأحكام الحياة . أما الحلاوة فتجدها فى مثل قول الشريف الرضى :

أنت النعيم لقلبى والعذاب له فما امرك فى قلبى وأحلاك

وقوله من القصيدة عينها :

عنـــدى رسائل شـوق لست اذكرها
لولا الرقيب لقــد بلغتهــــــا فاك

وليس يمنعك ان تتذوقها من البيت الاول ذكرَ المرارة فانها هنا اخف ما تكون وليست كل القصيدة من هـذه الطبقة ولعـل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربي اجدى وانفع فى تبيين المراد ولكننا لا نحب ان يفهم احد اننا قوم افتتنا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا أن يظن بنا الاعـلان عن النفس وأن كان لا غضاضة فى ذلك ما دمنا ندعوَ الى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة الى ما ترك من التنوع فى الاطراد والى احساس الشاعر باللذاذة والحسن احساسا هو مزيج من الاعجاب والطلب . خذ البيت الاول مثلا « انت النعيم » وتأمل اطراد العاطفة فى مصراعيه وتوازن قوتها فى شطريه وكيف انه مع هـذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدمك . ويريك وقعــين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبـارة موزونة على قـدر الاحسـاس لا أكثر ولا اقل ولو انه كان قال « أنت النعيم لقلبى والجحيم له .. فما امرك .. الخ » لأحسستَ التنـافر واختلاف القوة فى الشطرين ولما استعذبتَ منه قوله « فما أمرك الخ » بعـد لفظة الجحيم . وتأمل فى عقب هذا قول المسكين شكرى يصف جميلا ويبالغ فى حسنه :

كانمـا صـاغكم كيمـا يحبكمو
يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله فى صدر البيت ــ فانك تحس اذ تنتقل من الشـطر الاول الى الثانى كانما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكانما صادف ماء البيت انحـدارا مباغتا وكانك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثانى وانظر تحريه الدقة فى العبارة عن مقصوده تحريا اكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر

بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون اقوى الألفاظ واشدها من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما لم يكن يعجز الشريف عن حشره فى البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من أخف مراتب الحب واولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة ومن اشتهائه التقبيل اشتهاء لا ينبو مع ذلك فى زمام الارادة فالتناسب تام بين أنواع المعانى والاحساسات المتنوعة التى ضمنها البيت ـ من اعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن المعنى فى الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ الا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

واذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضى التى يقول فى مطلعها :

يا ليلة السفح الا عدت ثانية   سقى زمانك هطال من الديم

بقصيدة الطغرائى التى احتذاه فيها وترسم مواقع اقدامه وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكنا نجتزىء بذكر البيت من قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطغرائى مجاراة له . يقول الشريف :

قدرت منها بلا رقيب ولا حذر
على الذى نام عن ليلى ولم أنم

فيأخذه الطغرائى ويحرج صاحبيه ان كان لهما وجود :

يا صاحبى اعيناني على كلفى
بمن تناوم عن ليلى ولم انم

ويقول الشريف يصف ليلته معها :

وامست الريح كالغيرى تجاذبنا
على الكثيب فضول الريط واللمم

يشى بنـا الطيب احيـانا وآونة
يضيئنا البرق مجتازا على اضـم

فيسطو عليه الطغرائي ويصوغهما فى أربعة أبيات مرذولة :

بتنا وبات الصبا وهنا يغازلنـا   وفرشنا الرمل وشته يدالديم
والليل يكتم سرى والصبا كلف   بنشر ما كاد تطـويه يد الظلم
يانفحة الريح باتت بين أرحلنـا   بالجزع تسلك بين العفر والنعم
نهبت طيبا واغريت الوشاة بنا   ياحبذا انت لو لم تقتدى بهم

ويقول الشريف :

واكتم الصبح عنهـا وهى غافـلة
حتى تـكلم عصـفور على علم

فيضمه الطغرائى فى هذا البيت المتحوس :

وغاب عنا غراب البين ليلتنـا   فناب عنه عصيفير على عـلم

ويقول الشريف :

يولع الطل بردينا وقد نسمت   رويحة الفجر بين الضال والسلم

فيمسخه الطغرائى هكذا :

وآذنتنا بقرب الفجر ناشئة   باتت تحرش بين الضال والسلم

ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى   يلفنا الشوق من فرع الى قدم

فيأبى الا أن يعف عفته ويجيء بهذا البيت المنثور السخيف :

ورق لى قلبه القاسى ومكننى   ممـا أريد فلم آثم ولم الم

ويقول الشريف فى غير هذه القصيدة :

انت النعيم لقلبى والعـذاب له   فما امرك فى قلبى واحـلاك

فلا يرى الطغرائى أن يتركه فى قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى فى الجـوى حتى انست به
فهـو المـرارة يحلو طعمها بفمى

فيخلط ويحسب الشريف الى هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادى فى الزمان هـوى
الا ذكرت هـوى أيامنـا القـدم

والذكرى طبيعية ولكن فساد ذوق المقلد الطغرائى يابى له الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن استجد الحب بعدهم   والحب وقف على احبابنا القدم
الخ الخ

وشتان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وابيات الطغرائى لا يسيغها المرء الا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج الى جلاء . ولعل القارىء قد رأى مما أوردنا ان الحلاوة لا تتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها .

* * *

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة فى كلام المنفلوطى سواء فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها وقد اسلفنا أن وصف أسلوبه بالنعومة أقرب الى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب الى أدنى منه وليس أدنى من ذلك الا الانوثة وهى أحط وأضر ما يصيب الادب ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيغونها ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم اياها ان يتجشموه ويغروه بالكد فى ابراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف .

قال المنفلوطى فى مقدمة عبراته :

« الاشقياء فى الدنيا كثير ، وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات علهم يجدون فى بكائى عليهم تعزية وسلوى » .

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفا على المساكين أمثاله . ولو شاء لقال ان الناس جميعا كذلك ان كان يريد أن يذهب الى هذا المعنى لأن كل امرىء طالب محروم . ولكن وظيفة المرء فى

الحيـاة ليست ان يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفتـه أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل فى الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهى قائمة على ذلك ولا سبيل اليها بدونه ، بل هى تنتفى اذا امتنع وبطل .

وهذا شيء يعرفه كل احد ويحسه كل حى . وقد فطن اليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمى على ذلك واثباته فى مظاهره ومن آيات هذه الفطنة — فطنة عميقة مستولية على النفس — انهم قالوا ان فى الوجود قوتين متنازعتين ابدا وقوة الشر التى تطغى بالليل وتجلل فى الرعد وتقذف بالصواعق وتبتلى بالجدب والمحل والاوباء والارزاء والفناء وما يدخل فى ذلك ويتفرع منه ، وقوة الخير التى تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة الى آخر هذه المعانى وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمز .

ومثل هذا واضح فى جميع الأديان وان تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما ابليس ان فكرت الا اسم آخر لاهرمان والارمز لقـوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ فى خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفى أوهام العامة التى تعزو الامراض الى فعل الشياطين وفى خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير فى دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والغـاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ أليس هذا اثرا من الاعتقاد الاول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحيـاة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذى يحسه الأطفال والعامة والذى فطن اليه الاقدمون السذج بغرائزهم وفطرهم السليمة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذى يحسب ان ليس له من عمل فى الدنيا الا البكاء على الاشقياء كأنما خلق الرجل اضعف من الدودة الجوالة فى جوف الثرى .

وعسى قائل يقول : ان هذا منــه فرط حب للانسانية وهي فضيلة لا يقبلها رذيلة ان صاحبها بالغ وغلا فى الأمر لانه انما يغرق فى النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد فى التصوير ليكون ابلغ فى التأثير ويتناهى فى الدعوى استندناء للغاية القصوى .

هكذا يصنعون اذا ارادوا التضليل أو الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لأن الانتصاف منها لا يتاتى الا باستمانة العقل والعلم عليها . ولكن لا باس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه فى ضوء الاستقراء الحديث .

ما هى اخلاق المنفلوطى ؟ هى بالفاظه ــ او ان جادل فيما ارتضى ان يوصف به من الالفاظ ــ انقباض عن الناس ووحشة ــ عفة حتى عن مد يده الى ابويه ــ كرم فى الخلق طالما كان سببا فى وصول الاذى اليه ــ حلم يظنه الظان عجزا وضعفا ــ صمت طويل يحسبه الناظر عيا ــ ما رؤى يوما من الايام ملما بما يفسد عليه دينه او مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير رشد الحليم(١) مات له طفلان فى اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما ــ وليس احقر فى نظره من المادحين له ولا اصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه ــ لو ان الناس جميعا اجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنهـا ولو انهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته ليس ابغض اليه من الكذب ــ يحب حتى العتاب المر والتقريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا ــ يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض ــ ان كان فى اخلاقه ماخذ ففى هذا الخلق خلق النفرة من

---

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الالمانى « من لا يفقد عقله امام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده » .

الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم ـ وطنى بتهالك وجدا فى حب وطنه ويذرى الدمع حزنا عليه .. الخ .

ولا تنسى انه جرىء جراة معدومة النظير فى التقحم على حياء الناس بهذه النعوت الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية ـ فيلانثروبست ـ وان أسرته مشهورة بالتقوى وأن أبناءه يموتون فى غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر فى الاغلب والاعم .

* * *

فكيف تصف هذه الاخلاق أيها القارىء ؟ اما أن تكون مصدقها فننظر فى دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رايا لك .

اخلاق نادرة ؟ نعم ليس أندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس متفرقة ! ولكن الامر أكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هاك دلالة هذه الأخلاق الرائعة النادرة فى نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى فى الأغلب من أعراض الحالة التشنجية وكان الغرور وكثير من الخصائص البسيطة أو المركبة توجد فى حالة غير عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من المدهش ان يكون البخل من أعضاء ما يسميه (فيرى) أسرة الأمراض العصبية . وحب الانسانية ـ فيلانتروبى ـ نفسه مما يجرى هذا المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا فى بيته وكان له ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية أيضا وشرح هذه الحقائق فيما أسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك أن بعض مراكز المخ ـ واحدا أو اكثر ـ تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات أو الاجابة عليها فتسود فى حيز الأدراك طوائف معينة من الآراء أو تصير الغلبة لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم ـ كما يقول المثل ـ لا يصغون الى داعى العقل ولا يحسون الا انفسهم ومصالحهم . وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا ـ

بغير مبرر معقول ـ عن كل متعهم وكل ما ملكت أيمانهم لفائدة جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالممودين أو المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبى وعلى العكس من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب الرأى » .

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كانما كتبهما صاحبها لما نحن فى صدده وأيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ أن تؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال الغريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى اعصابهم أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وأن ما به ليس ايثاراً وحبا للانسانية متجاوزاً به حدود القصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها فى الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم واستصغار لأحلامهم واستهانة بعقولهم ؟

لسنا نتشبث بأحد الحكمين فليختر القارىء لهذا الكاتب اخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد واحدة .

« الأشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم » .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما احلكها واحساس بالعجز المطلق والقصور التا . وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التى تغشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى حياته او فى علاقاته مع أسرته او بيئته وأوساطه والتى لا تمنع ان يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الأمور صادق الوزن لا قدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلا من يحتسب طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته او من يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو ضعة قومية فى أبيه أو من

يمنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هـذه السوداء اليائسة التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجزة ودار أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم ــ أى تعليل لها من الأحوال التى تكتنفه هو أو سـواه ؟ وأى باعث عليها غير عـدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشـل ولا يخرج الامر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كأن يكون مكسورا أو أن تكون انبوبته مسدودة أو ان تكون اسنانه بالية واما أن يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه أو ان يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب فى هذه المرة راجعا الى القفل او المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .

اهبنى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو أحد فرضين : أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيىء فاذا كان احساسى مناسبا لدرجة الاساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن الامر جاوز المعقول وأن الغضب هاجه ما ليس فيه اسـاءة وهو الفرض الآخر فنعود الى مثال المفتاح والقفل وتقول اما أن تكون الظواهر الخداعة أو الانباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد الى الاساءة وتعمد الايذاء فيثير فى نفسى ما يحيط بى مثل ما يثيره الايذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعا الى الوسط والعيب عيب القفل ــ أو يكون العمل فى ذاته غير مقصود به الا الخير كأن يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت فى يومك من النصب أو لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك ويبلغ غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف ــ أى لا يلائمها وفى هذه الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الى

علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا اصبحت فى اليوم التالى وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهدأ ثائرك وبذالك تهورك فقد أعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك فى الصباح كما كان فى المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة أو الملاءمة مضطربة .

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية أو الى أن للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاء او هو يجهلها أو لا يعرفها معرفتها وفى كلتا هاتين الحالتين يكون العيب فى القفل أو المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الأحوال الا ما يستطيع أن يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا أن يلائم بين نفسه وبينها فان الفشل فى هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية أو عيب فى هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه أبدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب فى السلوك والاضطراب فى الادراك ويدخل فى هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهى اشياء على أوضح ما تكون فى قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى .

العبرات «قصة اليتيم»

ونعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول انهـا على نوعين : منها طائفة مترجمة عن امثلة الضعفاء الذاهبين مذهب التصنع والافراط في الرقة والأنوثة والباقى موضوع وهو فى كليهما ملفق مستحيل التلفيقات ـ حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنه المتكس الا ان يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة .

وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته فى كل قصة تقريبا بينما هو جالس فى مكتبه الذى كأنما صار ملتقى كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة اثيرية اذا به يسمع انينا أو حنينا أو صوتا خافتا أو توجعا أو زفيرا أو نهيقا او شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات أوهامه ومنكرات أحلامه ـ من العمر ملقى يتوجع على سريرا أو حصير فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر أنوثته ثم يموت الفتى ـ وهو ما لابد منه فى كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على أبطاله ـ فيغسله ويلفه فى الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه ألتى كأنما لها « زر » فى تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتنحدر وتسيل وان كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا فى اسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحانوتى الندابة وللأدب الذى هو حياة الامم وباعث القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقهـا وحافزها الى أجل المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع ان يتعظ بمصير أبطاله المخنثين – ان جاز الجمع بين النعتين – وبموتهم فى شرخ الشباب وميعة العمر وكان فى وسـع قـرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهـم ومرض نفوسـهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله وان أخوف ما نخاف على هـذه الأمـة ان تجد هذه الجرائيم ترى صالحا فى نفوسها فى وقت هى أحوج ما تكون فيه الى من يبذر فيها بذور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الالمانى رواية « أحزان فرتر » وهو فى التاسعة عشرة من عمره أى قبل ان ينضـج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر أمرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع فى كل زاوية فى العالم الغربى ونقلت الى جميع اللغات الحية ولكن واضعها الذى كان حقيقا أن يزهى بهذا النجاح وأن يفتتن بما وفقت اليه باكورة اعماله من الذيوع واستفاضة الذكر وأن يغريه ذلك بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة – ظل الى أن مات لا يندم على شيء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع ان يجمع كل نسخها من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟؟ لأن فرتر بطلها انتحر من اجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة اجل من ان يقطع المرء حبلها لخيبة أمل كائنا ما كان أو ان شئت فقل هى أهون من أن يكبر المرء أمر سعودها ونحوسها الى هذا الحد . وأن مما يصم الرجولة ولا شك أن لا يكون صحيح الادراك للأمور وأن لا يستطيع ان يلابس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط .

فأين تخنث العبرات من هذه الرجولة الضخمـة التي تقلو واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في الدنيا اشـقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس طالعهم ولانعمم الى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطىء ومصيب وناهض وكاب عاثر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضي حق الحياة عليه ولا يمطلها دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور ان أفلح ومعذور أن اخفق

جيته ـ تلك الصخرة القائمة في لج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهي وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات والأهوال ـ هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذي قرت عنده ثورة « كارليل » الهائج في ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يذوق طعمه الا بالتمني حتى لم يسعه لمـا ترجم احدى روايات جيته إلا ان يخضـع للجامه ويستفيد لعنانه والا ان يخـرج عن طبيعته ـ ان صح هذا التعبير ـ وينسى جموحه مع المعاني وركضه في حلبة متوعرة من الأداء فجاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق المتحدر في سهل دمث من الأرض .

ولعمري ما أبعد البون بين أدب تمليه الحياة المتدفقة وصحة الادارك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التي لا تعرف لها مثيلا في كل عصـور الأدب التي مرت بالأمم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التي صدر بها عبراته وموضوعها أن فتى في العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه وأكرمه وأحسن اليه احسانه الى ابنته التي كانت في مثل عمر الفتى فشبا عشيرى صفاء وخدنى مودة ووفاء ، ثم ذهب

العم الى جوار ربه بعد أن أوصى زوجته أن تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم ـ اما كما كان هو له أبا ولكن الزوجة لم تلبث أن تنكرت للفتى فزعمت انها عزمت أن تزوج ابنتها ترى أن فى بقائها بجانبها ما يريبها عند خطيبها وانها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وأمرته أن يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فاكبر الفتى ذلك وعظم عليه الأمر وأسودت الدنيا فى عينيه لأنه يحب الفتاة حبا لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها ، بل ولا هو نفسه الا فى هذه الساعة . فانسل من البيت ليلا وآثر ان يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى . ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة اشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى اخرى ، ثم شعر بسكون فعاد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من أثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين . ثم أن خادمته فى بيت عمه اهتدت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه ان يأتى ليودعها قبل موتها ، ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فلترجع أيها القارىء الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شىء من الآفات التى تقعد بالمرء عن ملابسة الحياة على الوجه الصحيح . فاذا كان الأمر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسى أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لأن الظروف المحيطة بالفتى والأحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادى السليم عن مكافحته ولكى يقتنع القارىء بما نذهب اليه نجاوز الاجمال الى التفصيل .

ارادت امرأة عمه ان تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها

كل أم ولم تكن تعلم ان الفتى يحبها لأنه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا اعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمى فى نفسى ودا واخاء او حب وغراما ، ولكنى اعلم انه ان كان حبا كان فقد بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يوما اننى احبها لأنى كنت أضن بها وهى ابنة عمى ورفيقة صباى ان أكون اول فاتح لهذا الجرح الأليم فى قلبها ، ولا قدرت فى نفسى يوما من الأيام أن أصل أسباب حياتى بأسباب حياتها — ولا حاولت فى ساعة من الساعات أن أتسقط منها ما يطمع فى مثله المحبوب ولا فكرت يوما أن أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لا علم أى المنزلتين انزلها من قلبها منزلة الأخ فاقنع منها بذلك أو منزلة الحبيب فأستعين بارادتها على ارادة أبويها » .

فما ذنب امراة عمه اذا كان قد شاء أن لا يتكلم أو يقدر أو يتسقط أو يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم ان لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان لها شأن آخر معه ، ولا يعقل ان يحسب المرء أن الناس أعرف منه بخبيئة نفسه .

اذن فليس فى رغبة امراة عمه أن تزوج ابنتها شىء يستدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرد والانسلال تحت الدجى طلبها اليه أن يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه على أن تقوم له بنفقاته فيه حرصا على الفتاة ان يريبها شىء من وجوده الى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعى . ولا شك أن فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقا أن يجعله يسيغها . فلماذا انسل وآثر الاستشراد والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد أن سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه ان مات ! أليس الواضح البين انه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الأحوال والظروف عجزا ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس فى شىء من الحب الطبيعى الذى يحس حامله بالغاية منه احساسا واضحا ويدركه اتم ادراك ، والذى لا يعتأ يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لاكهذا المسكين الذى لا يدرى أهو يحب ابنة عمه حب الأخ لأخته أم حب الرجل للمرأة . ولا يقدر فى نفسه أن يصل أسباب حياته بأسباب حياتها ولا يحاول أن يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لا يرضي من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولا يروق من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العذرى الذى لا وجود له فى هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه للحياة — واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس — والانقياد للمرأة كالكرة فى يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الاكف والذهول والنحول والاصفرار والاطراق ونكت الأرض والكلام الذى لا يقوله ولا يفهمه عاقل والنظرات الشاردة البلهاء فى المجالس والمحافل وسهر الليل ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل أطراف الأصابع للأشباح والخيالات وتحميل الرياح انواع السلامات والتحيات الطيبات المباركات ...

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لأنهم لا يطلعون على الحياة الا من منظار المنكرات التى تصفها لهم هذه الروايات ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال اشخاصها ولا غرابة فى ذلك فان من لا تؤهله تجاريبه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائى لا يسعه الا أن يسلم بصدقه ويستمد رأيه فى الحياة من كتابته ويتخذ أشخاصه قدوة تحتذى وتقلد . وهى نتيجة يعلمها من له أقل المام بعلم النفس وبتأثير الايحاء لا سيما فى الضعفاء والشبان والنساء ومرضى الأعصاب .

واذكر على سبيل التمثيل لتاثير هذه القصص المنحوسة انى اعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه وهواه فى صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى ان يكون على راس فرقة من « البوليس » السرى يطارد المجرمين . ذلك لأن هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان واخصها الحب بتنبيهها مركز التوليد قبل الأوان وقبل أن يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسى فى الفرد .

أسلوب المنفلوطي

اما اسلوب المنفلوطي فى هذه القصة وفى سواها فاسلوب رجل لا يبالي من اى مدخل دخل على القارىء ما دام يقدر ان سيصل منه اليه ولا اى بلاء يهديه فى احتيـاله ويقحمه عليه واذ كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التاكيد والغـلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس ادل منـه على الكذب والتزوير لما وقع فى وهمه من انه يكسب الكلام قوة وشـدة لا يفيدهما أن يلقيه ساذجا ويدعه غفلا واول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه انه من المحسنات اللازمة للصقل وان العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس الى آخره دون توقف واعتراض . ومع ان قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فان فيهـا أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحـد لا يكون الأسلوب أسلس واطبع بدونه . لكنه ذهب الى المبالغة فى كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الافحاش فى التاكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارىء فى اى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من اجل حروفه فان الألفاظ كلها سواء من حيث هى الفاظ . وانما قيمته و نصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معنـاه لا من اجل جرسـه

وصداه ، والا لكان ينبغى ان لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك ان الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلابد ان يكون وراءها شيء ، وان المرء يرتب المعانى اولا فى نفسه ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ وان كل زيادة فى اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة فى المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه مرأ خذ عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الراى ان راح يحسب انتاليف الألفاظ تاليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين ان كان كلمة يستطيع القارىء أن يسقطها بدون خسارة فى المعنى أو تعويق لتحدر الاحساسات أو افقار لغناها ـ كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فان العالم اغنى فى باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه وليس شيء احق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشان والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الأداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطى لان اللغة عنده ليست الا زينة يعرضها وحلى يخيل بها لا اداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن اين له ان ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى فى صدره ولا فكرة فى ذهنه .

وهذه امثلة للمفعول المطلق فى كتابة المنفلوطى وكلها لا ضرورة اليها ولا داعى الا من الرغبة فى تأكيد الغلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الاخرى .

١ ـ وقلت لابد ان يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين اضلاعه (ذوبا) .

٢ ـ فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

٣ – ثم لم أزل أراه .... أو منطويا على نفسه فى فراشه يئن (انين) الوالهة التكلى .

٤ – واتمنى لو استطعت أن اداخله (مداخلة) الصديق الصديقة .

٥ – وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجد .

٦ – وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديداً .

٧ – فشعرت براسه يلتهب (التهابا) .

٨ – واذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه (موجا) – يصف نحوله .

٩ – فاستفاق قليلا ونظر الى (نظرة) عذبة .

١٠ – فتنهد طويلا ونظر الى (نظرة) دامعة .

١١ – اصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك .

١٢ – فانزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .

١٣ – ١٥ – فعنى بى (عنايته) بها وارسلنا الى المدرسة فى يوم واحد فأنست بها (أنس) الأخ باخته واحببتها (حبا) شديداً .

١٦ – ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقداً) لا يحله الا ريب المنون .

١٧ – فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كاسها .

١٨ – ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر أحد .

١٩ – وهكذا فارقت المنزل ... (فراق) آدم جنته .

٢٠ – فرحلت (رحلة) طويلة .

٢١ – هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء – يعنى غرفته – (دورة) سقطت على اثرها فى مكانى .

٢٢ - فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .

٢٣ - وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت ان كبده قد ارفضت .

٢٤ - وان الضربة التى اصابته قد سحقته (سحقا) .

٢٥ - ٢٦ - اشعر براسي يحترف (احترافا) وبقلبى يذوب (ذوبا) .

٢٧ - ثم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى الى اى رقم يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم انفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل الشأن واحد فى كل كتابه أم هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب جميعا !

ولعل القارىء لاحظ فيما أوردنا من الامثلة كثرة النعوت والاحوال كقوله « خرجت منه - يعني المنزل - شريدا طريدا حائرا ملتاعا » وقوله : « تركتني فقيرا معدما لا املك من متاع الدنيا شيئا » وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس « قريحة معذبة » وقد يعلم القارىء أو لا يعلم أن هذا الاسراف فى النعوت من دلائل الضعف وفقر الذهن لأن الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى مرجوه أن يوافق واحد منها محله وأن يقع فى مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وما يلقى وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات من علامات الوهن لأن الكاتب الضعيف لا يستطيع أن يتحرى الدقة اذ كان لا يدرى أى الرموز اللفظية اكفل بالعبارة النابغة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الألفاظ بلا حساب مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ فى ذاكرته وبرنين الاصداء المتقطعة للأصوات المألوفة . وهناك أمر آخر

وهو ان الترادف فى اللغة من الاكاذيب الشائعة اذ ليس ثم فى الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحدا على وجه الضبط . وما من مترادفين يزعم الزاعمون انهما سواء فى المدلول الا وبينهما مقدار من الاختلاف قل او كثر ، فاذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعانى متشابهة المدلول كان لنا ان نسأل ايها يعني على التحقيق واى مدلولاتهـــا المتفاوتة يقصد اليه ويريد منـــا فى فهم المراد أو تكوين الصورة ان نعتمد عليـــه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حـد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشان فى هذا مثله فى التصوير والرسم فكما ان المعول فيهما ليس على كثرة الالوان بل على أصابتها مواضعهـا ووقوعها مواقعهـــا قلت او كثرت وصحة التأليف بينها كذلك فى الكتابة ليست العبرة بتعـدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

اترى سيسمعنا السخفاء وأشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحيـــة أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأى حمـــاقة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وان كان على هذا لا يحتاج الا الى أيسر فكرة وادنى نظرة وهو ان اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء فى ذاته ولا معنى له فى نفســـــه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الألفاظ بعضهـــا الى بعض كاللون فى ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئا الا بعد أن يأتلف مع سواه ويجرى كل الى أخيه مجراه وليس لغير ذلك مســـــاغ فى العقل او مجـــاز الى الفـكر وقيام فى النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفى جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة او قبيحة سخيفة ، والا فان أحـــدنا لا يعجزه أن يعمد الى معجم او كتاب مترادف فيأخـذ منه ويسرد وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شانها أن تدل على كثرة الاطلاع وســـعة الحظيرة وطول الباع وانمـــا التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هى آية هذه السعة والطول والكثرة

فلا تجعل بالك الى الالفاظ اذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن اجعله الى طريقة تأليفه الكلام فان رايته يدور منها فى حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر اليها فاعلم انه ضيق المضطرب محدود المجال ، ضئيل الحال ، والق بعد ذلك الفاظه من اى حالق شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب : « فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الأرض أحد اذل منى ولا أشقى » — « ومارئى مثل يومها يوم كان اكثر باكية وباكيا » او هذا التأليف « فما هو ان مرت أيام الحداد حتى رايت وجوها غير الوجوه » — « وما هى الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن فانما نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر — والالفاظ كالحجارة فى محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها فى راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتثبت فى انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخنث فى كتابته وملفق مستحيل التلفيقات ، وانه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة فى العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتأكيد فى صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا ان ننظر كيف يسوق القصة اى فى الاسلوب بمعنى الطرّيقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه .

وقد الف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درسا فيما يفيده صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة افق الفكر ..وانا لنعلم انه لن يفيدهم الا الحسرة على ما اضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخبث فى هذه الأمة التى نكبت بهم على

قدر سدر اعينهم وضلال افهامهم ، ولكنا ماقصدنا قط الى امالتهم عما هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من المنشيء اذا قدحته ورى وهدى من له قلب اذا اريته رأى .

ونمهد لما نريد تبيينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما لا يدركون الشيء او يصدمهم فنقول ان ههنا فى ناحيــة من الطريق شرطيا واقفا يرقب الحركة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين الى الشر الى اى هو تابع له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى يديه وتقيس النصب الذى ينبغى ان يعانيه الى القدرة اللازمة التى لا تؤاتيه فتعطف عليه فى محنته وترثى له فى وقفته وتصوره وانت ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا اوامره ونواهيه ــ هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب المضحك فى هيئته وفى تراخى همته وبطء حركته او عـدم التلاؤم والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذله فى مشيته وتثاوبه واستناده الى الجدران وذهول نظرته او حواره مع الباعة وتأتيه الى غايتــه وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جلبتــه او تواريه فى الدروب ووراء العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك . ثم تصوره صورة تركبــه فيها بالدعابة فانت قــد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين اذ كنت قد نظرت الى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت فى الأولى جادا وفى الأخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين معبرة عن اعتبــارك اياه ناطقة بالغرض منها فوجهــة النظر الى الموضوع والطريقة التى تتحراها لغــايتك هى ما نسميه اســلوب التناول ولا شبهة فى أن المرء ينظر الى الأمور من جهات معينة ــ من ناحية الجد أو الهزل أو المألوفية او الشذوذ او الجلال أو الحقــارة وليس يعنينا من اى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنيا مقدار ما فى سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ التغلب على الصعوبات . ونقول مبلــغ التغلب على الصعوبات لأن

القصصي لا تظهر قدرته في المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون اشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفي المواقف التي تتطلب أدق النظر واشق التمييز واصح العبارة .

فكيف تناول المنفلوطي موضوعه وما هي الفكرة العامة التي نظر بها فيه ، وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التي استعملها صادقة وهل السلوك الذي عزاه الى اشخاصه مما هو معهود في الآدميين كما نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خبطه وتخليطه أو اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : انك تضعه في ميزان لم ينصبه لنفسه ولا كان في باله ولا جرى له هو وأمثاله في خاطر . وردنا على هذا المحتج ان الأدب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل والاعتداد فيه الا بالصلاحية للحياة . وهي هي ميزانها أبدا واحد لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فاخرجوا به من هذا الميدان واذهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان أبيتم الا أن تعدوه كاتبا اديبا فلا مسمح عن قذفه في هذا الاتون الحامي لنعرف من أي معدن هو . وانتم بعد خلقاء أن ترضوا لصاحبكم مانرتضي لانفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش في عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيقات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ في حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه في عشي ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب في اثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون أن الادب والفلسفة ـ أو النظر المخلص الصحيح ان شئت ـ لايتفقان وان الغائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون اديبا وان الاديب لا يكون معمدا ورائدا وان ما وصل الله من الخصائص .

والفة يجب ان يقطعه الانسان ويعادي بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط في هوة الابد وجاء زمننا الشادي بعلاقة الطبيعة بنفس الآدمي الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان ، والمريغ وراء السماء سماء وبعد الآباد ابادا ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود الى صاحبكم المنفلوطي ــ وما اهول هذا الانحدار ــ فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصه لكفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا في غير هذا البلد ان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكنا وطنا النفس على الجلد ورضناها على السكون الى ما تكلفنا اياه حداثة العهد بالأدب الحي .

يحسب المنفلوطي ان تكلف التفصيل في المحسوسات مظنة الاجادة وفاته ــ وانى له ان يفهم هذا ــ انه لا يعجز احدا ان يقول لك هل فلان هذا الذي تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهل في يده كتاب أم عصا ونائم هو أم جالس ؟! وانما محك القدرة في تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا ظواهر الأشياء وقشورها وفي رسم الانفعالات والحركات النفسية واعتلاج الخوالج الذهنية وماهو بسبيل ذلك .

اما تفصيل المنفلوطي فلا خير فيه بل الخير في اجتنابه وتحاشيه وليذكر القارىء ان هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يلي انه كان شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب ــ وهو بطل القصة ــ في البيت المقابل له في الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الاولى بين شيوخ الرواية .

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبي وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فارى امامي فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا الى مصباح منير في احدى زوايا الغرفة (ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين

الاستظهار والاعادة وكيف رأى شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟ ولكن هناك ما هو أدهى :

« عدت الى منزلي منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشئون فأشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصـــباحه وقد اكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لمـا ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به في في مكانه فما رمت مكاني حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث ان عاد الى نفسه » .

وهى لاتفيد ولايمكن أن تفيد شيئا سوى انه يريد ان يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارىء ثم هل تدرى أنه أحس انه موشك أن يقول شيئا مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضـــاق وحتى لو كان الوقت وقت الظيرة المتقدة المتمعة لا يسمح بأن يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة أو جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصـــابه لم يجد ما يخرجه ممـــا أوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير أن يقول أن الفتى رفع راسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت أيها القارىء هل قنعت أم نزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافى : ذهب المنفلوطى اليه لأنه سمع « فى جوف الغرفة انه ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فأمررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه

موجعا فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من اشربة الحمى فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا محادثته اياك لم تره وبالجسم لو توكأت عليه لانهدم فاما القميص من الجلد يموج فيه البدن فلم تكن نتوقع أن يسمعه أحد الا في مستشفى المجاذيب ! ومع كل هـذا النحول احتـاح صاحبكم المنفلوطي أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب أن انغص على القارىء كتابنا بكثرة ما أورد من هذه التليفقات المنكرة ولكني أسأله الصبر على هذه الجملة أيضا ــ دعا المنفلوطي الطبيب فجس المريض وهمس في اذنه أن العليل مشرف على الخطر ــ ولا عجب أن يصير الى هذا المصير الخبيث بعد ان جرعه المنفلوطي ــ شراب حماه ــ ثم دفع اليه المنفلوطي الأجر واحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر » .

والعادة ان الأشربة يسقاها المريض بعـد فترات (زمنية) يحددها الطبيب ولكن الظاهر أن طبيب المنفلوطي أمره أن يعطيه الدواء بعد كل ... بكاء !؟

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطي مات له طفلان في اسبوع واحـد « فسـكن لهذا الحادث (سكونا) لم تخالطه زفرة ولم تمازجه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا عليهما » ؟؟؟ وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى الناس يحادثهم حتى كأن المرزوء سواه .

وبعـد أن استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطي عليه وابلا من الأسـئلة وهو يعلم انه في سياق الموت

(فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآنى فقال انت هنا ؟ قلت نعم : ارجو ان تكون احسن حالا من ذى قبل . قال ارجو ان اكون كذلك . قلت : هل تأذن لى يا سيدى ان أسألك من انت وما مقامك وحدك فى هذا المكان وهل انت غريب عن هذا البلد أو انت من اهليه وهل تشكو داء ظاهرا (يااللعمى) أوهما باطنا وهل لك ان تحدثنى بشأنك وتفضى الى بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب ان الفتى لم ويصفه ماذا كان يخشى المسكين لو فعل وهو ميت لا محالة — بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى انتهى بين يدى هذا الحانوتى بعد أن فرغ من الحديث الذى يملأ احد عشر صفحة من تسع عشرة فما اطول نفسه فى ساعة الموت ! وما اخلق هذا الادب الميت بأن يروى عن المحتضرين ؟ وما أحق اهل الفتى ان يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

شوقي في الميزان

٢

عرضنا (شوقي) في الميزان لاول مرة فارتج به ارتجاجا عنيفا وأيقظه من غفلة كان فيها سادرا وما هو الا ان حط به لم شال حتى تمنى أن يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته : « هبوني لست بالشاعر أليس لي فخر آخر ادل به ؟؟ »

نقول اجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لأربعة أجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره في أوانه ـ أسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه في أسبوع أو أقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارىء واحد وتوالى الطلب له في المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الأدب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضي ذوي العقول المتزنة والفطر المستقيمة والاطلاع المجدي وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل . ومنهم أذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة أخرى حظها من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفوعة

بالدهش اميلَ منها الى المنافرة والعنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغيير ، وفى هؤلاء أمل لا يضيع ولا سيما بعد هداة الدهشة وتطامن المفاجاة لأن نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة ان اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر عند اليأس منه نبذه . واما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعنى فريقى القراء — وبالحرى المتحدثين — الذين لم نوجه اليهم خطابا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والفرازة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن اظرف ما يروى عن احدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التى اقام لها الأزهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة فظن — صان الله لشوقى اعجابه — اننا انما انكرنا سكوته عن القطن وأردنا منه أن يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن (طالعا) وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟؟

والفريق الآخر من الساخطين هم اولئك الذين عرفوا بأنهم شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما رأينا احر من سخطهم ولا اكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه آخر اشارة نلمح اليهم بها .

* * *

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا اوهن قصائد شوقى

واكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا فاننا انما راعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائده وهي لا تقل في اعتقادنا واعتقاده عن اجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة ــ كما قلنا في الجزء الأول ــ هي ان قراء اليوم غيرهم بالامس فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هــذا القول باننا - انما كنا نصوب الانتقاد الى شــــاعرية شوقي وذوقه وروح قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأني ، واذا كان الطعن في الشاعرية والعــاهة في الذوق والاعوجاج في المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب لا يقدم ولا يؤخر في الحكم على الشاعر . ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث في شعر شوقي سواسية .

أما ثاني الاعتقادين فهو اننا اغلظنا العصا لشوقي وشددنا عليه النكير . ولهؤلاء نقول اننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما احوج البرهان في هذه الى الشـــــدة وما اقل ما يغني فيه اللين والهوادة .

ومما استصعبوه اننا قرنا معانيه بمعاني الشحاذين . فياعجبا !! كأننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها وهو لايهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة في أشنع ضروبها !! واي حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقا ؟؟ فنحن لا نرى للرجل في انفسنا قدرا يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه في توطئة الجزء الاول ولا نريد العدول عنه في هذا الجزء ولا في الأجزاء التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا ولضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ما شاء فانه لا يعرف كيف يغضب .

وكأننا بزمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هــذه التي يغضب لها الناس في آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الأول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الأديب الجدير بشرف الأدب، وما ترخص له المحاكم في التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال في حاضر الزمان ، لا في سالف العصر والأوان . وفي الجزر البريطانية لا في جزائر واق الواق ومعــاهد السحرة والجان ، انسي يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص ـ لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكي في النفوس الضرم . شاءت شركة جناتوزان أن تقتبس منها أبياتا لترويج غذاء مشهور من أغذيتها التي تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من امر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذي قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا انه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله ـ ويدعى المستر هيوز ـ وقف فطلب الى القضــاء منع الشركة من امتهان الأبيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن أصعب الأشياء ان يتخيل الانسان امرا أشد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة في صياح الباعة على سلعهم . انها لاهانة لا تقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه اقل مسحة من الكرامة الادبية » .

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه عذر الشاعر وقال : « لا عجب أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة ـ وعندي

ان هذا الاقتباس لا يدخل فى حق الاستشهاد الذى يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١ » وحكم بتغريم الشركة اربعين شلنا تعويضا للاهانة التى ألحقتها بالشاعر (١) .

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التى يسمونها الكرامة الادبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير فى غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفكهة .

لمثل ذلك الابتذال يغضب أديب الغربيين ويقول محاميهم انه اشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لأن امير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الأدبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا انه « أسرى مروءة الدنى وادنى مروءة السرى » كما كان يقال فى عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا مغلقا ، لأن هذا الذى أنف كبلنج أن يصنع بشعره على غيره على غير علم منه قد صنعه شوقى بشعره مختارا وتعمد أن يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ الم ينظم أبياتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها فى الصحف ؟ بل فقد قال أدامه الله للدكاكين والمآتم والأفراح والسهرات :

لله ريشة صادق من ريشة … تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة فى المشارق كلها … حسنا وفكتها من التقييد

---

(١) جريدة الديلى كرنيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

تهدى لحسن الخط كل مقصر — وتمد فى الاحسان كل مجيد
اغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها — من ريشة الالماس عند الغيد
والذفوف الطرس ان خطرت به — من ريشة الليثى فوق العود
وتكاد تحيى مؤنسا بصريرها — وتقول أيام ابن مقلة عودى
لو لم يكن فى الأمر الا انهـا — مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفى هذه الأبيات اوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة ـ شعر لا يتأبه صاحبه ان ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية دراجة لبانت ان اخيلته وابتكاراته هى ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة كتابة بانها « اغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى فى قوارع الطرقات « ياجواهر يا عنب » والذى يدلل على ريشة عربية بانها « حسنت الكتابة فى المشارق كلها » انما يرشف من البحر الذى تغرف منه « الفرص الحقيقية واحسن بضاعة فى العالم كله » و « ولم لم يكن فى الأمر الا انها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى أن الباعة لا يغلطون غلطة شوقى فيقولون وهم يعرضون الريشة ويمدحونها بالجدة والسلاسة ان لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!

وبعد فان المرء ليزدرى العقل الانسانى نفسه ان قيل ان هؤلاء الصعاليك الفكريين الذين تقوم عليهم الامارة الشوقية من ذوى مزاياه وحملة أمانته فى الأرض . فالأدباء فى الامم هم عنوان حياتها الروحية والفكرية ومعيار لما تحسه من مفاخر الحياة وقوى الطبيعة ومعانى الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوى الذى يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة فى الامم صفحتها الواضحة وطبقتها الممتازة الراجحة ، فقل لى رعاك الله أى هذه الطغمة أميرا كان او ماموراً تفخر الأمة الحية بانه صورة ما فى نفوسها من زينة

وجمال ومظهر ، ما فى رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط فى الوجود ، وتراث مقسم بين ابناء آدم . وان المرء ليزهى بآدميته حين يلفى بنفسه فى غمار الآداب الغربية ، وتجيش اعماق ضميره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهابها ومتجهاتها وتجاوب أصدائها واصواتها — ابواب للكتابة منوعة ، ومهايع متسعبة ، وفنون مبتدعة . ونحل ومذاهب ، ومدارس ومشارب . والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر فى كل شية من شياتها ، محسوسة فى كل حطره من خطراتها : متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة ينابيعها مروية ، والنفس تحس من احدى نواحى ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها . فكانها نفوس متفرقة لانفس واحدة جائمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الى الأدب الذى يدعيه اولئك الاميون العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجبا . ترى هذا عاكفا على رقمنيه ولعلمه وذاك مدبرا الى ربربه وسربه ، ومادحا وهاجيا ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة فى التراب ثاوية . او كأنما هى الاثقال الى القرار هاوية . فصدق احدى اثنتين : اما أن أدبا تسمعه من هؤلاء اشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى أسمى معارج الانسانية . أو انهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وان من الجناية على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء النفر بعد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من اغراضه او يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات ارزاقهم بعرض لعابينهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا « الكلتور المصرى »

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وانشاد الاشعار بأيسر مما يساق المولوية لتشييع الجنائز وتلاوة الاذكار !!

ولقد كان مما قيل فى المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها احدى الحواجز التى تصونها ان ترتد الى العصور المظلمة وانها معصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وانها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابه كل طاغية — فأى عصـــمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟؟ الا أن العصا فى يد الاكار لانفع لمدينة مصر واصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون انفسهم من الكرامة فلا احجاف بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطاة القلم المنصب عليهم . ولقد وجب بل آن ان يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وأن ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

* * *

وكأنما شــاء القــدر أن يبدد حبائل شوقى وطلاسمه كلها فى بضعة اسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر علية القوم يثنون عليه فيغترون بتشـــيعهم له ويروعهم اعجابهم به ويحسبون أن لرايهم فيه شانا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغانى فأماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة اعجاب هؤلاء العلية اذا أعجبوا وقيمة استحسانهم اذا استحسنوا . وانها ان هى الا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة

شمرت اللجنة عن ساعديها واغمضت أمام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندى اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب فأخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به

للملأ كى يشاركها فى الابتهاج به فيللمهارة !! ولكنها لسوء حظ شوقى كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث فى الجلسة مما اظهر اطلاع أكثر الأعضاء على النشيد قبل التئامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الأول .

فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين — وهم أعضاؤها الاخصائيون — أختارت نشيد شوقى وأعلنت أسباب اختيارها له فى منشورها وهى أنها « انتهت فى مناقشتها الى انه اكفاها وأوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى أن تتسق لنشيد قومى » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء ان الأستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك فى الصحف ينقد النشيد ويقرر أنه لا يصلح للتلحين بانغام الأناشيد القومية . ثم انهم يذكرون أن فريقا من اعضاء نادى الموسيقى من الذين كانوا فى لجنة الأغاني اذاعوا بعقب ذلك فى الصحف ان الأستاذ انما يتكلم برأيه ، ومعنى هذا انهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجدين فى ابعاد كل مظنة فى صلاحية « النشيد الوطنى المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبنى على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟ .

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هى أمامهم واقبلوا يسالونها وهى محتدمة تصفيقا : ما هذا الذى تصفقين له ؟؟ نعم لم يعد يكفى فى هذه الأمور أن يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه . وكثر اللغط بتحيزها واجترا الموسيقيون على الافضاء بآرائهم فى تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه أول

المتهرمين . فقد اخذ يزعم انه انما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة فى مسرحهم . كانما النشيد مشى بقدمين الى ديوان لجنة الاغانى !! وخشيت اللجنة ان يكون حكم الامة عليه حكما قاضيا على معرفتها وانصافها واخلاصها فبادر اعضاؤها الاخصائيون يلفون الصحف ان النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومى !! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك فى تلحينه . اذن فماذا اشترطم ؟؟ اتراكم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة » تغنيها على المعازف والآلات ؟ وأين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » ؟؟

كذلك تهافت حكم لجنة الاغانى بيدها وانكشف طلسم كان من أبهر طلاسم الشـــهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى به طلسم الاسماء الخلابة ووهم الالقاب الجذابة . وعندنا ان لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للاغانى ولا لسواها ولكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤب اليه بعد أن تكون قد ابطلت وهم العامة فى امثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من اجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على انها مهمة ننفسها على هذه اللجنة فقـد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضـلا كبيرا فلو لم تقيضها الحوادث لاظهـار قيمة التحبيذ والاطراء من ذوى الألقاب والأسماء لتكفل بذلك محفل آخر اقيم فى شهر ديسمبر الماضى وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذلك الشهر: قد كان يوم الجمعة الماضى ميعاد القاء القصـيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القضرى فى الحفلة التى اقيمت تكريما له برئاسة حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر النزهة بشبرا فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى أقبل المدعوون من علمـاء وكبراء وأدباء وأعيان فازدحم بهم المكان ثم اقبل نائب الأمير محمـد

بك جلبى باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك فرق الكشافة للكشاف الأعظم ثم ابدات الحفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقى بك فنشيد الكشافة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الأمير واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة والقاها بين الاعجاب والتصفيق الشديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الأمير ساعة ذهبية اثرية ثمينة وتبرع حضرة العربى الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربى عمر بك السعدى والقى قصيدة عامرة اثنى فيها على سمو الأمير لتعضيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من اصبعه خاتما من الماس ووضعه فى اصبع الاستاذ القصرى وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغنى شيخ السادة المرغنية بمصر خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية انشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم واقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر .

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتأمله القارىء وليتصور اسم شوقى مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر ..

وثم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها فى انصافها وفى الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشيط المواهب الفتية التى تنهض اليه لولا أنها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففى فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديمية كونكور) يحكم فى كل سنة بجائزة قدرها اثنى عشر الف فرنك للسابق من الأدباء فى باب من أبواب التاليف ، فاصاب جائزة السنة

المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها .
افيدرى القارىء من هذا ارنست بيروشون ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسي يسأل عن شأنه فاذا المسئول والسائل فى العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فالفوها خلوا من كل اشارة اليه أو الى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظرى عنوان فى احدى صفحه هذه ترجمته « خير روايات العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١) فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس « وكان بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا تاما وان كان قد طبع فى الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص .. ولم يكن احد من اعضاء المجمع يعرفه الا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقا فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم امس ولكن فاز أستاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر » .

فياقوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك لجانهم تعدل فى احكامها هذا العدل وتحيى كل ملكة صالحة للحياة وهم لا يأتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا تحسن ان تجامل الا بأن ترضى فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والاقفار ! ان فى ذلك لموعظة .

* * *

---

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد ١٢ ديسمبر ١٩٢٠ .

وخاصة القول اننا عرفنا راى القراء فى عملنا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يفيء الى شعره فقد اسخطناهم ولا نسأل الله ان يخفف سخطهم . وأما الذين يرجعون الى الأسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان أقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم انه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الاولين يمثله كتاب ورد الينا غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : « خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل راى الآخرين بيت لقينا به اديب مشهور فقال : ايه يا فلان ، اليك بيتا يسير مسير الأمثال :

شوقى تولاه عباس فاظهره والیوم یخمله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يخمل عصرا ولاغية وهم تخفتها صيحة حق . وانا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسرة شوقى : ما ترى فى رثائه لمصطفى كامل ؟ أتنتقده ؟ قلت وماذا عساى أن انتقد ان لم أنتقد الهراء والزيف والشتات ؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتنى هداك الله فما كنت اظنها آية لأحد من العالمين وما حسبتها الا زلة اسقطته فيها « مغالبة الشجون لخاطره » أو داهية خانه فيها امكانه الذى ما فتىء يخونه كما قال منها :

ماذا دهاني يوم بنت فعقني   فيك القريض وخانني امكاني

وما دهاه الا العجز والفهاهة والحرج . دهته اولا فاجبل وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها فى أربعين يوما ثم زاد كثيراً من أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانيا فجرى فيها على عادته من التلفيق والعقم والزغل المموه . فأما وقد علمت أنها الآية التى بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التى يستنصر بها دعاته فبآيته فلندحض رسالته وفى معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل واى معقل ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل اخوى من ذلك واضعف ، وأضأل فى الضئولة وأسخف ، أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وان كان يزعج بديهته فى صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وان كان

خاطره منه فى وصب وشقاء . ولقد فات اصحابنا سماسرة شوقى ان خلافنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما اجاد شاعرهم فى رأيهم او خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على ادائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة اخسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان أبعد عن حالة الصحو والصواب وكالاعجمى كلما أمعن فى فصاحته وبيانه استغلق على مسامع الاعراب . وهذا هو الواقع فى ما آخذناه ونأخذه على شعر شوقى وهو بخاصة شأننا فى الحكم على قصيدته هذه التى رأينا بعض المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من ان تعاب ، وهى لو يفقه من القصائد التى يصاب منها المذهب العتيق فى مقاتله والشواهد التى يبحث عنها لابراز مآخذه . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الأول فيها .

فالعيوب المعنوية التى يكثر وقوع شوقى وأضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن أشهرها وأقربها الى الظهور واجمعها لأغلاطهم عيوب أربعة وهى بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر — وهذه العيوب هى التى صيرتهم ابعد عن الشعر الحقيقى الرفيع المترجم عن النفس الانسانية فى أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجى عن المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماكولى عن نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر فى هذه القصيدة قد لا تجده فى غيرها من القصائد الا مزويا أو دقيقا عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار ان من نقائص الشعر ما لا يمنع ان يلمح له رواء معجب يستهوى البسطاء بل ربما زادته جمالا فى الظاهر كالحلى المزيفة فانها فى الغالب أجمل

من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غاليه .

(١) التفكك

فاما التفكك فهو ان تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقه لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافى المتشابهة أكثر من أن تحصى فاذا اعتبرنا التشابه فى الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز . ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا أختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وافسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من اجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين او القدم عن الكف او القلب عن المعدة . او هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره فى تنسيق عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الا حيث تنزل بهم عماية الوحشية الى حضيضها الادنى ، وليس دون ذلك غاية فى الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها فاعلم انه ألفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد او شعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء الحلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف وأجهزة ، وكلما استفل الشىء فى مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها فى اللون والتركيب

صالحة لان تحل فى اى مكان من البنية التى هى فيها . فاذا ارتقيت الى النبات الفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين اتمه فى اشرف المخلوقات واحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى اجناس الناس كما تتمشى فى انواع المخلوقات ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الأقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحترى فى هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة ... حص اللحى متشابهو الالوان
لو يسمعون بأكلة او شربة ... بعمان اصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت اقدارا وملامح وبدوات واطوارا حتى ليوشك ان يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته . وتقترب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الادب الفيت تشابها فى الاسلوب والموضوع والمشرب وتماثلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين واسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الأسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات ،ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر اعضائها فيقولون أفخر بيت واغزل بيت واشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين ابيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكره وجفاف السليقة فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم ومضات نور متقطعة لا كوكب صلد متصل الاشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة،

او كانما هى ميدان قتال فيه الف مين والف ذراع والف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على اعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه فى قمته ، لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وها « كومة الرمل التى يسميها شوقى قصيدة فى رثاء مصطفى كامل نسال من يشاء ان يضعها على اى وضع فهل يراها تعود الا كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء الا احقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها . وتقريرا لذلك نأتى هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الأول ليقراها القارىء المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على قضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا أنها كما نرجو لا تضيع عبثا ــ قال شوقى أصلحه الله :

١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما فى ماتم والدانى
٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد فى الله من خلد ومن رضوان
٣ لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى فى الزائرين وروع الحرمان
٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان
٥ لم تالها عند الشدائد خدمة فى الله والمختار والسلطان
٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا فى المحفلين بصوتك الرنان
٧ ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحبان

٨ جار التراب وانت اكـــــرم راحل
ماذا لقيت من الوجـــود الفـــانى
٩ ابكى صباك ولا اعاتب من جنى هـــذا عليه كرامة للجـانى
١٠ يتساءلون ابالســـلال قضيت ام
بالقلب ام هـل مت بالســـــرطان
١١ الله يشـــهد ان موتك بالحجـــا
والجـــد والاقـــدام والعـــرفان
١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم فى هـــذه الدنيا فانت البانى
١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيــه آمال لنا وامانى
١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى ولرب حى ميت الوجـدان
١٥ الناس جار فى الحياة لغاية ومضـــلل يجرى بغير عنـــان
١٦ والخلد فى الدنيا وليس بهين عليا المناصـب لم تتح لجبان
١٧ فلو ان رســـل الله قد جبنوا لمـــا
ماتوا عـــلى دين ولا ايمــــــان
١٨ المجـــد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لهـــا الأخـــلاق كالعنـوان
١٩ واحب من طـــول الحيـــاة بذلة
قصر يريك تقـــاصر الاقـــــران
٢٠ دقات قلب المـرء قائلة له ان الحيـــــاة دقائق وثوان
٢١ فارفع لنفسك بعـــد موتك ذكرها
فالذكـــر للانســـان عمـــر ثان
٢٢ للمرء فى الدنيا وجم شئونها ماشاء من ربح ومن خسران
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضـيق لمؤثر الســـلوان
٢٤ الناس غاد فى الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهانى
٢٥ ومنعم لم يلق الا لـــذة فى طيها شجن من الاشـــجان
٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات والخطرات والأسرار والاعــلان

٢٨ هل قام قبلك فى المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران
٣٠ لفوك فى علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ماأحمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكى بدمع قان
٣٢ يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكانما فى نعشك القمران
٣٣ وكأنه نعش الحسين بكربلا يختال بين بكى وبين حنان
٣٤ فى ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل
وبكتك بالدمع الهتون غوان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر ام باى لسان
٣٩ فلو ان اوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الاوطان
٤٠ اوكان يحمل فى الجوانح ميت حملوك فى الاسماع والاجفان
٤١ او صيغ من غرر الفضائل والعلى
كفن لبست احاسن الاكفان
٤٢ او كان للذكر الكريم بقية
لم تات بعد رثيت فى القرآن
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معالم الجثمان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضلل
قنط وساعات الرحيل دوان

٤٥ ونواظر العواد عنك امالها
دمع تعالج كتمه وتعانى
٤٦ تملى وتكتب والمشاغل جمة
ويداك فى القرطاس ترتجفان
٤٧ فهششت لى حتى كانك عائدى
وانا الذى هد السقام كيانى
٤٨ ورايت كيف تموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائمها
ما للمنون بدكهن يدان
٥٠ وجعلت تسالنى الرثاء فهاكه من ادمعى وسرائرى وجنانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى لنظمت فيك يتيمة الازمان
٥٢ وانا الذى ارثى الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجل فوق النيرات مكانى
٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقنى
فيك القريض وخاننى امكانى
٥٥ هون عليك فلا شمات بميت
ان المنية غاية الانسان
٥٦ من للحسود بميتة بلغتها
عزت على كسرى انوشروان
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشانى
٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فنم بامان

٥٩ اخلع على مصر شـبابك عاليا
والبس شـباب الحـور والولدان
٦٠ فلعـل مصرا من شبابك ترتدى
مجـدا تتيـه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهـرمين من عـزماته
بعض المضـاء تحـرك الهرمان
٦٢ علمت شـبان المدائن والقـرى
كيف الحيـاة تكون فى الشـبان
٦٣ مصر الأسـيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظـامك حان
٦٤ أقسمت انك فى التراب طهـارة
ملك يهـاب سـؤاله الملـكان

* * *

كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل وسماها قصيدة لانها لم تأب ان تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها أن تسمى اربعة وستين بيتا منظومة فى كل شىء أو فى لا شىء . فاعتبرها أيها القارىء على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر اربعة وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها ربحت وعادت أحسن نسقا واقرب نظما ـ قال شوقى ايضا :

١ المشرقان عليـك ينتحبـان
قاصـيهما فى مأتم والـدانى
١٤ وجـدانك الحى المقيم علـى المدى
ولـرب حى ميت الوجـدان
٢١ فارفع لنفسـك بعـد موتك ذكرها
فالذكـر للانسـان عمـر ثـان
٦٤ اقسمت انك فى التراب طهـارة
ملك يهـاب سـؤاله الملـكان

٢٧ يا طاهر الغـدوات والروحات والخطـ
ـــرات والاسرار والاعـــلان
٩ ابكى صـــباك ولا اعاتب من جنى
هــذا عليـك كرامة للجـــانى
١٩ واحب من طـول الحيـــاة بذلة
قصر يريك تقـــاصر الاقــران
٥٦ من للحســـود بميتة بلغتهـــا
عـــزت على كسـبرى انوشــروان
٣٦ شقت لمنظرك الجيـــوب عقـــائل
وبكتك بالـــــدمع الهتــون غـــوان
٥٥ هون عليـك فـلا شـــمات بميت
ان المنيـــة غايـــة الانســـــان
٢٠ دقات قلب المـرء قائلة لـــــه
ان الحيـــــاة دقائق وثـــوان
١٣ بالله فتش عـن فؤادك فى الثرى
هـــل فيـــه آمال لنـــا واماني
٦٠ فلعل مصرا من شـــبابك ترتدى
مجـــدا تتيــــه به على البـــلدان
٤٣ ولقـــد نظرتك والردى بك محـدق
والداء ملء معــــــالم الجثمـــــان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضـــلل
قنط وســـــاعات الرحيـــل دوان
٤٩ ووجـــــدت فى ذاك الخيال عزائما
ما للمنـــــون بدكهـــــن يـــــدان
٦١ فلو ان بالهــــرمين من عـــزماته
بعض المضــــــاء تحـــرك الهــرمان
٤٦ تملى وتكتب والمشـــــاغل جمـة
ويداك فى القـــرطاس ترتجفـــــان

٤٥ ونواظر العواد عنك امالها
دمع تعالج كتمه وتعانى
٤٧ فهششت لى حتى كانك عائدى
وانا الذى هد السقام كيانى
٥٠ وجعلت تسالنى الرثاء فهاكه
من ادمعى وسرائرى وجنانى
٤٨ ورايت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقنى
فيك القريض وخاننى امكانى
٥٢ وانا الذى ارثى الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجل فوق النيرات مكانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى
لنظمت فيك يتيمة الازمان

* * *

٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فنم بامان
٦٣ مصر الاسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظامك حان
٣٤ فى ذمة الله الكريم وبره
ما ضم من عرف ومن احسان
٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلى
كفن لبست احاسن الاكفان
٤٠ او كان يحمل فى الجوانح ميت
حملوك فى الاسماع والاجفان

٤٢ و لو ان أوطـانا تصـور هيكلا
دفنـوك بين جـوانح الأوطـان
٤٢ او كان للذكر الحـكيم بقيـة
لم تات بعـد رثيت فى القـرآن
٢ يا خادم الاسـلام اجـر مجاهد
فى الله من خـلد ومن رضـوان
٦ يا ليت مكة والمدينـة فازتا
فى المحفـلين بصـوتك الرنان
٧ ليرى الأواخـر يومذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سـحبان
٣ لما نعيت الى الحجـاز مشى الاسى
فى الزائرين وروع الحـرمان
٤ السـكة الكبرى حيـال رباهمـا
منكوسـة الاعـلام والقضـبان

* * *

٨ جار التراب وانت اكـرم راحـل
ماذا لقيت من الوجـود الفـانى
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحـربها
فهـل استرحت ام استراح الشـانى
١٠ يتسـاءلون أبالسلال قضـيت أم
بالقلب ام هـل مت بالسرطان
١١ الله يشـهد أن مـوتك بالحجى
والجـد والاقـدام والعـرفان
١٨ المجـد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لهـا الأخـلاق كالعنوان
١٢ ان كان للاخـلاق ركن قائم
فى هـذه الدنيـا فانت البانى

٢٨ هل قــام قبلك فى المــدائن فاتحــا
فاز بغـــير مهنــد وســـنان
٢٠ يدعو الى العلم الشريف وعنـــده
أن العــــلوم دعائم العمـــــران
٢٢ علمت شـــبان المدائن والقـــرى
كيف الحيـــاة تكون فى الشـــبان
١٦ والخـــلد فى الدنيـــا وليس بهين
عليـــا المناصب لم تتـــح لجبـــان
٢٣ فهى الفضــــــاء لراغب متطلـــــع
وهى المضـــيق لمؤثر الســــلوان
١٧ ولو ان رســــــل الله قد جبنوا
لمـــا ماتوا على دين ولا ايمـــان
٣٠ لفـــوك فى علم البـــلاد منكســا
جـــزع الهلال على فتى الفتيـــان
٣١ ما احمــر من خجل ولا من ريبة
لكنمـــا يبكى بدمـــــع قان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقـــة
وجلالك المصـــدوق يلتقيـــان
٣٢ يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكانمـــا فى نعشـــك القمـــران
٣٣ وكانه نعش الحســـين بكـــربلا
يختـــال بين بكى وبين حنـــان
٣٧ والخلق حولك خاشـــعون كعهدهم
اذ ينصـــتون لخطبـــة وبيـــان
٣٨ يتســـــاءلون باى قلب ترتقى
بعـــد المنـــابر ام باى لســـان
٥٩ اخلع على مصر شـــبابك حاليا
والبس شـــباب الحـــور والولدان

٥ لم تالها عنــــد الشدائد خــدمة
في الله والمختـــــــار والســـــلطان
١٥ الناس جار في الحيـاة لغـــاية
ومضـــلل يجـرى بغـــير عنـــــان
٢٥ ومنعم لم يـاق الا لـــــــــذة
في طيهـا شــجن من الاشـــجان
٢٢ للمرء في الدنيـــــــا وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خســـــــران
٢٤ والناس غاد في الشـــــقاء ورائح
يشـــقي لـــه الرحماء وهـــو الهـاني
٢٦ فاصبر على نعمى الحيـاة وبؤسها
نعمى الحيـــاة وبؤسها ســــــيان

فانظر أيها القارىء الى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟ على أننا قد تناولنا الأبيات عفوا كما بدرت لنا ولم نتحر الاقصاء في الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التى تصـل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكـد يجتمع بيت من القصيدة على بيت ، وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارىء نفسه : هل قرأ في الشعر أشد تفككا منها ؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد أو تقطرات من عقل ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخلع النفس فتاتي كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل واليبس ؟

وقبل ان نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما اسلفنا بالاشلاء الملفقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا في هــــذه القصيدة .

(٢) الاحالة

اما الاحالة فهى فساد المعنى وهى ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدها كثيرة فى هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباها   منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لأنها لا تقام على أرجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقى . اللهم الا اذا ظن انها أعمدة تلغراف . على انها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان فى المعنى طائل اذ ما غناء قول القائل فى رثاء العظماء أن الجدران أو العمد مثلا نكست رؤسها لأجله ؟

ومنه قوله :

ان كان للاخلاق ركن قائم   (فى هذه الدنيا) فانت الباقى

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والاداء اجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئا ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام فى كل لغة ولأى قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح أن يقال فى انسان

معلوم أو صح أن يقال فى كل انسان : فى السياسى والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ ايفهم انه وحده هو البانى لكل ركن للاخلاق فى هذه الدنيا ؟ اذن فماذا يقال عن النبى ان قيل هذا عن الزعيم السياسى ؟

وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول فى قائد الحرب وفى جوابة الافاق وفى خطيب المحافل وفى التاجر السرى والوزير المحنك والمربى المرشد والمخترع الحاذق فى كل انسان بل فى الناس جميعا بل فى مخلوقات الله وكائناته طرا من حى ونابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمدلول سواء أرثيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بمذهبه آلاف الملايين منذ الوف السنين .

ولا جرم فان كونفوشيوس وحده صاحب شريعة فى قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل انه موقظ كل نفس بمصر فى عصره لما كان هذا حقا اذ كم فى مصر من رجل ايقظه ما أيقظَ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من اناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر فى كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الأمم فى جميع العصور فالأمر شر من اللغو وأقبح من السفه — هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الاخلاقى فزعم أن ليس للاخلاق ركن قام فى هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد فى أواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟

اذن يكون بكم العجماوات خيرا من شعر الآدميين كما قلنا فى فصل مضى .

* * *

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
هـــل فيـــه آمال لنا وامانى

لو سأل : هل فى قلبك المدفــون فى الثرى آمال لنـــا وامانى لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . اما الذى يسأل ان يفتش فلا يصح أن يسأل هل فى قلبك آمال واماني الا فى معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعى : يا هذا الذى يمشى هل انت حى ؟

ولقد قال حكيم :

تمـوت مع المرء حاجاته وتبقـى له حاجة ما بقى

فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله كبار النفوس وبعيدي الهمم ومنها :

فلو أن رسل الله قد جبنـوا لمـا
ماتوا عـــلى دين ولا ايمـــان

الصواب فى اظهار فضل الشجاعة أن يقال انها لازمة فى أصغر المطالب واقرب الغايات كما يقال فى اظهار فضل المـــال ان الانســان لا يقـــدر على أن يشترى ابرة بغيره ولا يقال فى الدلالة على شـــدة لزومه وبيان الحاجة اليه انه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا أن أحقر الناس خليق أن لا يكسب قوته القفار بغـير الشجاعة لـكان لقـوله معنى ، أما الاستشهاد على قـدرها واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون الى الشجاعة . أما أن قيل ان الشاعر يعنى أن الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم

روح الله لابد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو افرغ منه وهل اذا سمعت ايها القارىء رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا أكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق أن ينظم في بيت شعر ؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقى ان صح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع   وهى المضيق لمؤثر السلوان

* * *

والذى يقوله الناس ــ وشوقى منهم اذا شاء ــ ان فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تازم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى تنفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب ! !

فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والسلوان يحرجها فرأى لا يخطر الا على فكر كفكر شوقى المقلوب .

ومن هذه الاحالات هذه الفهاهة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحيــاة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما الصبر على نعماها فماذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا أن المصائب والخيرات سيان فلا غرابة فى أن يصبر الانسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقــول شوقى وما اصدقه فاننا لا نرى منحة هى اشبه بالمحنة من هــذا الشعر الذى انعم الله به عليه . ولله فى خلقه شئون .

ويقــول :

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكانمــا فى نعشــك القمـران

وزعيمنا الفقيــد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى ذلك النعش ؟!

ولا يقال ان صاحبنا اراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لأن السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو إنه قال « كأنما فى نعشك القمر » أو « كأنما فى نعشك الشمس » لما نقص فى الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمرى كيف يكون النعش فى السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى فى النعش ؟ ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الافلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالمدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرىء وامرىء ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف .

ويقول عافاه الله :

وانا الذى أرثى الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران

اى والله ظاهر . لكن الشموس والأقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر .

ويقول :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فنم بامان

ونقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات فى وطنه : أحببت بلدك فنم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد احد انه سيدفن فى غيره .

ومن مبالغاته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو أن بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله اراد المقابلة بين الشباب فى البيت المتقدم والهرمين فى هذا البيت ونحن ننعى على هذه المبالغة دائما انها لا تدل على شيء فهب انه قال :

فلو ان بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان

او قال :

فـــلو ان بالشـــطين من عـــزماته
بعض المضـــاء تحـــرك الشـــطان

الى آخر المثنيات التى تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت فى رثاء مصطفى أو رثاء باستور او فى رثاء ابن زريق أو مشهور كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟

ويقول :

مصر الأســيفة ريفهـا وصعيدها
قـــبر ابـــر على عظـــامك حان

* * *

مصر ايها القارىء ــ ولا تخطىء فتحسبها القاهرة المعزية فانها مصر بريفها وصعيدها ــ مصر كلها ما هى الا قبر واحد . فلله در شاعرها يرثى رجلا أحيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولأى ضرورة وليدل على ماذا ؟ لا شيء .

وقد اجتزانا بهذه الابيات ، لا لانها كل ما فى القصيدة من شواهد الاحالة واعوجاج الطبع ، بل لانها ذات طعم وان كان رديئا ممجوجا وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملتها بنت الأحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانما اكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

* * *

(٢) التقليـــد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعانى وأيسره على المقلد الاقتباس المفيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفســـك بعـد موتك ذكرها
فالذكـــــر للانســـــان عمر ثان

مقتضب من بيت المتنبى :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته
ما فاته وفضــول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصـــــــون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبى الحسن الانبارى فوق تشويهه وذاك حين يقول فى رثاء الوزير ابى طاهر الذى صلبه عضد الدولة :

كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهـم قيام للصـلاة

ونقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به وانما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة

وقوله .

او كان يحمل فى الجـوانح ميت
حملوك فى الاسماع والاجفـــان

ماخوذ من بيت ابن النبيه فى قصيدته التى لم تبق صحيفة لم تستشهد بمطلعها :

النـــاس للموت كخيــل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت فى الترب ولو انصفوا ما كنت الا فى صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه «عوالم» الافراح فى اغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا ارفع من القائلات « احطك فى عينى يا سيدى واتكحل عليك » وانه ليقــول كما قلن :

ولو ان لى علم ما فى غد خباتك فى مقلتى من حــذر

وقوله :

او كان للذكر الحكيم بقية لم تات بعد رثيت فى القرآن

منظور فيه الى بيت المعرى :

ولو تقـــدم فى عصر مضى نزلت
فى وصفه معجزات الآى والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائل والعلا
كفن لبســت احاسن الاكفـــان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه
ولكنـــه ذاك الثنـــاء المخلف

فما اضاف شوقي الى هذه المعاني سوى انه جعل الاكفان تصاغ وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانا تصـــور هيكلا
دفنـــوك بين جـوانح الاوطان

يريد جسدا . كأنه يحسب أن الأوطان ان لم تصور جســدا لم يدفن الففيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقي ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته :

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى

أليست هي شطرة الشريف في أحدى همزياته :

لمـا نعـاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول الشريف أيضا « ان المنية غاية الابعاد » وكأن القافية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى او ناى فان المنايا غاية القرب او قصارى البعاد

فاتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته في فصل على حدة .

* * *

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالأعراض دون الجواهر وهو العيب الرابع الذي اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة الدالة على أنماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق

بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها فى الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن التفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يعسر على الاطفال ادراك رزانة الرجال انظر ايها القاريء الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائلة له　　ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت القصيد فى راى عشاق شوقى فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنه أو مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد اتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة — وهنا يبدو للنظر فى قصر المسافة التى يذهبون اليها فى اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب أيام كان يقاس الوقت بالساعات المائية أو الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟

أبهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينتظم فى الحيــــاة الانســـانية على علاقة سطحية باختراع طاريء ؟! ولقد قلنا فى نقدنا لرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية باسرها قديمها وحديثها عربيها واعجميها » وتعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا ان أحدهم لو سمع

ناصحا يعظه فى موقف جد ـ وأى موقف جـــد أجد من رثاء النابغين ؟؟ ـ فيناديه يا أخى صن وقتك لأن قلبك ينبض كما تنبض الساعة لأغرب فى الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك فى عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ، وما ذاك الا لحسبانه ان الهزل جائز فىّ الشعر فكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لمـا تمثل بما حقه أن يضحك منه ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان

لفوك فى علم البـلاد منكســا   جزع الهلال على فتى الفتيان
ما احمر من خجل ولا من ريبة   لـــكنما يبكى بـدمع قان

وللعلم جوهر وعرض فأما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد الأمة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية . وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع الاعلام لأجله . فشوقى يولع بهذا العرض اذا هو نظم فى العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثى بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كى يكون لونها دمعا ودمعها دما منزوفا . وليست هذه هفوة او فلتة بدرت منه هنا بل هى دأبه كلما وصف علما ، فقد قال فى وصف الهلال الأحمر :

كان ما احمر منه حول غرته   دم البراءة زكى شيب عثمانا
كأن ما ابيض فى أثنـــاء حمرته   نور الشهيد الذى قدمات ظمآنا
كأنه شــفق تسمو العيون له   قد قلد الأفق ياقوتا ومرجانا
كأنه من دم العشاق مختضب   يثير حيث بدا وجدا واشجانا
كأنه من جمـــال رائع وهدى   خدود يوسف لمـاعف ولهانا
كأنه وردة حمــراء زاهيــة   فى الخلد قد فتحت فى كف رضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت

والمرجان فى لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضابا لشيبة أو دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس اذ هو قد وصف هلالا ابيض فى اثناء حمرة والهلال الأحمر على عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو انه تنبه اليه — ومع هذا فانى لا قسم أن صاحبنا رص هذه (الكائنات) فى ابياته الستة ويخيل اليه انه لو تقدم به الزمن الى عهد عمر بن الخطاب لقال اشعركم من يقول كأن وكان لا من يقول من ومن ..

ومن الغباء العجيب أن يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى ان يظن بها الناس الظنون وهى بريئة عفة !! اذ ما الذى يخطر على باله الخجل والريبة فى هذا المقام وهو يرثى الرجل الذى يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم   فى هــذه الدنيا فانت البانى

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت أين تنتهى بصاحبها !! وليت شعر شوقى اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟؟ أكان لا يرى للف النعش بها اى معنى لأنها لا تبكى بدمع أحمر ؟؟ .

تلك آية شوقى ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة . كومة الرمل كما قلنا فى أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبائع بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الأغلاط ، وسملا مرقعا من النشوز والأختباط . وما كان يسعه أن يخرج نفسه خلقا آخر فيأتى بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم فى أغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم ان السكة الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى في الزائرين وروع الحرمان
السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارىء للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال وبي مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هي حتى الساعة

وكان في مقدوره ان يعلم ان الحسين لم يشيع في موكب حاشد كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه

وكأنه نعش الحسين بكربلا يختال بين بكى وبين حنان

وقد رايناه يغير على قصائد الشريف افتراه لم يفقه رائيته التي يقول منها في مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبه الا بوطىء من الجرد المحاضير
كان بيض المواضي وهي تنهبه نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه وقد اقام ثلاثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة . ومن العامة من يستظهر خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى اثخن بالجراح وانه - لا حيا الله قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة واكثر من أربعين ضربة ثم ديس بالخيل ورض جسده واحتز راسه وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم ارسله الى يزيد في خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وأنى لمن يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه في المواكب !! ولا نقول يختال بين البكاء والحنان فما من احد ينسب الاختيال الى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذي لا يميز بين تشييع قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها . فأن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذي يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة الحسين فالخطأ أعظم واقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب

فما رأيناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لانهم أزكن من شوقي وادرى بما ينبغي ان يذكر به يوم الحسين اذ كانوا يحتلفون بمصره في ميدان حرب لا بمدفنه في الثرى .

كان يسعه ان لا يقول ذلك كما كان يسعه ان يسكت ولكنه الهم ان يستقصي عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا يتداركه . وان يجتهد في ذلك كانه يكافأ على مجهوده وهو في الحقيقة يكافأ المكافأة التي يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع منه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال عنه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

* * *

ولا تدع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبي ومضـــارعة المعري قبل ان تكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروز تلك البديهيـــات واشـــباه البديهيات التي يتصنع شوقي بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من هبنقياته ويريح نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة في الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهي من اصعب الشعر مراما وأبعده مرتقى لا يساس قيادها لغير طائفة من الناس توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجرى بها السنتهم آيات تنفج ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هي فصل الخطاب ومفرق الشبهات تستوعب في أحرف معدودات ما لا تزيده الأسفار الضافية الا شرحا وامتدادا وتسمعها فتشع في ذهنك ضياءها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأتلف القدم والجدة : قدم الحقيقة كأثبت ما تحلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التي تطبع كل مرئي بطابعها .

فهى تارة تلم لك شمث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الازل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبى اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفو الحياة لجاهل او غافل عما مضى منهـا وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبـه والمغالط نفسـه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسـانا غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكان قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك ان الموت ما اخطا الفتى لكالطول(١) المرخى وثنياه باليد

وهذا اجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتهنة بالأجل

وطورا تصل طرف الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحترى

متى ارت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيـه

وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبى المأثور

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـة فلعـله لا يظلم

او كقول أبى فراس

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فاذا قنعت فـكل شىء كاف

---

(١) الطول : حبل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع او يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بغاث الطير اكثرها فراخا   وام الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك فى كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا فى كل نسج ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها وضوح المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت الفذ

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الاقلام بحثا وتنقيبا فى علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا وانعاما فى شئون الامم وراقبت الدول على سنن شتى من الأنظمة والدساتير فما خرجت كلها بزبدة او جزو لا اصدق ولا أتم من هذه الحكمة التى اهتدى اليها هذا البدوى الناشىء فى عصور الجهالة وانك لا تزن امة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هى الحكمة الصادقة وهى كما ترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هى الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتذلة او مغشوشة ممتملة . اشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطىء النهر الغزير ،

وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير ، واحمق ممن يحفر البئر على شاطىء النهر من يروح ويغدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الغاشية التم حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة فى البكور واحترم الأستاذ تتقدم وفى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم ـ ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها .

لى دولة الشعر دون العصر وائلة
مفاخرى حكمى فيها وامثالى !!

فهل يدرى القارىء من صاحب الحكم والامثال المخزور ؟؟ انه هو شوقى ، ثم هل يدرى ما حكمه وامثاله التى استتبت له بهـا دوله الشعر ؟؟ هذه هى :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته	وليس اذا الاعلام خانت بخذال
والعلم فى فضله او فى مفاخره	ركن الممالك صدر الدولة الحالى
يقل للعلم عند العارفين به	ماتقدر النفس من حب واجلال

* * *

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الأول نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم لحفظ الدرس . حلى النساء الذهب وحلى الرجال الأدب » وليسأل نفسه ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته وأى ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه وماذا من وحى الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية واصالتها ؟؟ أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن اركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فأكثر فليتلق الوحى أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية وليستفيدوا :

المحســـــنون هم اللبــــــاب … وسائر النــاس النفــاية
ان القضـــــــاء اذا رمى … دك القواعـــــــد من ثبير
والمال لا تجني ثمار رؤســه … حتي يصيب من الرؤس مدبرا
الجــــد غاية كل لاه لاعب … عنــد المنيــة يجزع المفراح

سر فى الهواء ولذ بناصية السهى

الموت لا يخفى عليــه ســـبيل

فلم ار غير حــكم الله حكما … ولم ارد دون باب الله بابا
وان البر ابقى فى حيـــاة … وابقى بعــد صــاحبه وثابا
ومن يعدل بحب الله شــيئا … كحب المال ضل هوى وخابا
وما الرزق مجتنب حــرفة … اذ الحظ لم يهجر المحترف
ما الدين الا تراث الناس قبلكم … كل امرىء لأبيـــه تابع تال
ومن العقول جداول وجلامد … ومن النفــوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقعهــا

ليس الشجاع الراى مثل جبــانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن اطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال واحدة فى اثر واحدة فيفهمه متشدا أنه : « ان آل لك حد الراكب مثل الماشى أول له بتفشر . وان آل لك حد الغنى مثل الفقير اول له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى أجرة « شيلة » حتى راى شوقى ان يسمعنا نظما « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان أول له بتفشر » فآمنا بخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية !!

وهل علم أحد أن المســــافر اذا آب فقد آب قبل ان يقول شوقى :

وكل مســـافر سيؤب يوما اذا رزق الســـلامة والايابا

ام علموا الحق حتى اخبرهم به مستقربا جهلهم سائلا اياهم :

اليس الحق ان العيش فان وان الحي غايتــــه الممــات

اليس كذلك أم ماذا بالله ؟؟

ام حكم أحد الاحلام الا حين علموا منه أن :

الحق ابلج كالصباح لنـــاظر لو أن قوما حكموا الاحــلاما

* * *

ومن امثلة حكمته المغشوشة المنتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به

لا يؤكل الليث الا وهو اشـــــلاء

والبيت من قصيدة فى شكسبير . ومعناه ان جثـة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها ـ اى انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفهـا حتى اتلفها ولم تتفتت هى حتى تفتتت . مهابة واجلالا !!.. وانه لمـا أكلها أكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الأسد لا يؤكل الا عضـــوا عضوا ..

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والأرض والسماء، المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر والايماء .. تصفيق متواصل .. لا بل ضحك تتجاوب به الاصداء، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر وامير الشعراء .

فياهذا . أن جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لأنهـا فى الحياة جسد تفوقه فى الحسن والقوة اجساد كثيرة . وهى فى الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الأحياء من اكملها الى ادناها . ولو

جاز أن يعظم أحد بأن يقال ان الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق بأبطال الحروب اذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على اقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبى يقول فى أبى شجاع .

من لا تشـــابهه الاحياء فى شيم
أمسى تشـابهه الأموات فى الرمم

وهو من نعلم محضا الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى انه لا معنى لأن يقال ان البلى تهيب أن يتمشى فيه الا بعد تقسيمه لان تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل الا هو واشلاء لأن الشأن كذلك فى كل مأكول فالفار أيضا لا يؤكل الا وهو اشلاء والدجاجة لا تؤكل الا وهى اشلاء بل حتى الأرز لا يؤكل الا وهو اشلاء ممضوغة وما من شىء يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميـع الاكلين . وصاحبنا يرثى شـاعرا فيخلط هذا الخلط فعافاه الله اى نوع من أنواع العظمة يفقهه ان كان لا يفقه العظمة التى يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟؟ واين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء اذا صح فيه فانه يصح فى كل حيوان ؟؟

على ان لشوقى دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحكمة اليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة ان كنت فهم ... ان عزرائيـــل فى حلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل ... من توقاه اتقى نصف العلل
اتخذ سكناك فى طلق الجواء ... بين شمس ونبـــات وهواء
خيمة فى البيد خير من قصور ... تبخل الشمس عليها بالمرور

وتقول : ان كانت هذه حكمة وشعراً فلم لا يكون كاتب « احترس من النشالين » و « ان أردت النزول اطلب من الكمسارى توقيف القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتا يجوز أن يكون معناها مطروقا شائعا ويجوز أن يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد كما هى ونختارها من معان ورد مثلها فى شعر المتنبى الذى يقتفى شوقى أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

الف هذا الهواء اوقع فى الأنفس ان الحمام مر المذاق

من أطاق التماس شيء غلابا
واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام

لا يعجبن مضيما حسن بزته
وهل تروق دفينا جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل فى طواياها حجة الطبع الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهى قد كان يمكن ان تقع لشوقى من ذخيرة الأحاديث الشاعة فتسمعها منه كعادته فى نقل هذه الأحاديث منظومة فاذا هى مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان . لا يزين الذليل حسن البزة) وهكذا عهدنا الأمثال العامة فاذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحين فكلاهما صحيح ، ولكن ليست

الصحة الواقعية هي ما نطلب من النفس الملهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وانما المصدر الذى تبجست منه والشخصية التى طبعتها بصورتها والقلب الذى خرجت من لدنه والحجة التى صيرتها مقنعة شافية هى بغيتنا من نجوى الالهام وهى التى يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبى « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتمم المعنى لان هذه الشطرة التى لا تزيد البيت صحة تزيده حياة وتنبئنا وحدها بأن فى البيت حقيقة اقرب الينا وحجة الصق بنا وثمرة اجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التى تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها « الف هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير !! أليس المتنبى قد لمس به سر كل تركيب فى هذه الموجودات التى ليس كيانها الا عادة تألفها زمنا ثم تتبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال فى بقية الأبيات .

وصفوة القول ان الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون لانها صوغ متاع مشاع على حين انهم لا يمسون الحكمة العالية مساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لانهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس فى بعض اقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين ان أرقى ما يرتقون اليه ان يأتوا بكلمة مقبولة فى شئون المعيشة وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فأما الأولى فبنت المران والمكابدة تقرأ آلافا من امثالها فى كتب اللياقة ونصائح « اياك وحذار عليك » وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق فى شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والأديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من الوان البيئة المكتسبة والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك فى غلبة الصناعة عليه كالحريرى على ما اذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير ان الشـباك مختلفـات

ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن انه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق انه له او كأنه يخشى ان ينازعه لفرحته به وهو

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان همذهبت اخلاقهمذهبوا

وكرر فقال

وانما الأمم الأخـلاق ما بقيت فان تولت مضوا فى اثرها قدما

ثم كرر أيضا فى قوله

وليس بعـامر بنيـان قوم اذا اخـلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك على الأخلاق كان بناؤه من نحت أولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد أخرى وكل هـذا الفرح بمعنى يعد من تحصـيل الحاصـل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغى اليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الأمم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسـميه بالحقائق الرياضـية أو حقائق التمرينات الأولية .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس فى بائيته بمثل هذه الحكم :

عجبٌ عجب عجب عجب بقـر تمشى ولهـا ذنب
لا تغضب يوما ان شـتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى ان يقول

النــاقة لا منقــار لهـا والـوزة ليس لهـا قتب

وكثيرا فى قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه ان يقال فيها انها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هـذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستاثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لأن البيت فى الحقيقة لا مدلول له . فلو انك حذفت كلمة الأخلاق وجعلت مكانها أصفارا لما نقص من معناه شيء . لأن هذه الكلمة لا تؤدى معنى محدودا فى الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصــدق والسخاء وحسن المعـاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطبــاع كالعناد والمراءاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحيانا من كلام الافرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطبائع البارزة والحيوية المتينة فأى المعنيين يقصد شوقى ؟؟ ان من الأمم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مادة الحيــاة فيها واحتوائهــا على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العــاجل أو البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الأمم . وان منها لمـا تحمد سجاياه ثم لا تلغيه من القــوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقى ما غناه بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل .

ولقــد أضحكنا مرة احـد الثرثرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس النــاس وان فى ذيوع بيت شــوقى لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى .

لا تقل اصلى وفصلى ابدا انما اصل الفتى ماقد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا !! اننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئــا للانســانية فان الشمس لا تطلع الا على الحكماء من ابنائها .

رثاء الأميرة فاطمة

اقسم بالكعبة ذات الاستار ، وبقبر النبى المختار . اقسم بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . اقسم بالمشهد الحسينى والضريح الزينبى ومقام السيد البدوى ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما ان دفنوا بالأمس الا نيرة ..

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الاقسام استهل شوقى رثاءه للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهى منثور قوله :

حلفت بالمستترة	والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء فى ال	حظائر المنورة
مراقد السلالة الط	يبة المطهرة
ما انزلوا الى الثرى	بالأمس الا نيرة

ولولا أن الأمر اظهر من أن يحتاج الى قسم لاقسمت له بحرّ قبلة ومقام ، وبكل نبى وامام ، انه لنسيج وحده فى فكاهة الرثاء ، ان كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا شوقى فى مراثيه اجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكى من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن العبث بالمدح ـ أفرأيت احدا قط يقسم لك على صدقه فى تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب او يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة

غيرِ شوقى ؟؟ واذا اطرد هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابه ونتخذ له اسما فى أصول البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا او اسما آخر مقبولا لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده فى قصائده جميعا وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم انها ليست بفلتة نظم او هفوة خاطر ولكنها أصول يرعاها وأسوم يعيها ولا ينساها . والا فلو كان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو ... د والوفود المحضرد
وكل دمع كذب ... ولوعة مزورة

الا ان الأمر بين لمن ينصفون ... فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فأشعرنا الريب واتهم نفسه فى ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق اليه ،ونرجو ان لا يبارى فيه ... فأما ان يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير أسمائها . فلابد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه .

* * *

عجيب والله امر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ اشبه بالتعمد ولا توقرا أقرب الى المجانة من هذائه فى رثائه . وما التبس الهزل بالاجلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ومبرات الاميرة أشهر من ان يرتاب فيها او يتنازع عليها ؟؟ وهبها

لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر اذا لم يصدقها الناس بالايمان او البراهين فى قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هـذا ونساله : ما باله يفترض ان النـاس تبـكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضرورى هذا ليقول بعـده ان الدموع الكاذبة لا تغنى عنها وانه .

لا ينفـع الميت سـوى صالحـة مدخـرة

ابقول ذلك لان الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت واغنته عن الصالحه المدخرة ؟؟ فاذا كان التباكى كالبكاء فى هذا المعنى فلم هذا السخف الذى يغض من المبكية والبـاكين وليس له من جـدوى ؟ ؟

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا اننا نريد ان يلمس ضعف تمييز شـوقى عن التفـرقة بين حالات النفوس ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصـيدة ، ولولا اننا سمعنا بيتين منها يرددان فى معرض الاستحـسان فأحببنـا ان نمسح الرغو عن محضهما لمن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الأول وهو .

فاطـم من يولـد يمت المهـد جسر المقـبرة

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين اليه ابا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيـا الى غيرها فانما الدنيـا لهم معبر

وفصله المعرى وقسمه فقال :

حيـاة كجسر بين موتين : اول وثان ، وفقد المرء ان يعبر الجسر

وهو اوضح وأوجز فى قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنيـة واعلم انما الشيب للمنيـة جسر

فالذى صنعه شوقى هو انه سرقه وشوهه كعـادته لأنه جعل المرء يخرج من المهد الى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم اطفالا !!

والصحيح ان المهد اول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته .

والبيت الثانى أو هو بيت القصيد فى رأيهم قوله :

يلفظهـــا حنظــلة كانت بفيــه سـكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا ان يمتدح كل بيت فى القصيدة خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الأذواق وانتكاسها . فقد دل به شوقى على سقم تعبيره واراد ان يقول ان المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو انه قال :

يلفظهـــا سـكرة كانت بفيــه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا ادركه الموت حلا مذاقها لديه وكره ان يلفظها كأنها « السكرة » !! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشى على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوسا ...

ومن ترهات شوقى التى يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفس فى غـد ميتـة فمنشـرة

فالنفوس لا تموت فى غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى أمس واول من امس وقبل ذلك بآلاف السنين وهى تموت اليوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى أن يقول : ان كل نفس تموت منشرة غدا ـ فخانه الاداء وخذلته العبارة وهى لو استقامت له لما جاء بطائل .

واما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقى فلا نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصاء ، والشعر اذا تساوى فيه النقد والاغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ماهذا يا أبا عمرو ؟؟

مصطفى افندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيـــانا وكثيرا ما يخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم . وطالما نفعه التطوح وابلغه كل أربه أوجله اذ يدعى الدعاوى العريضـــة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينفق الحافه عند من ليس يكرثهم أن يخدعوا به . بيد أن الاعتساف اذا كان رائده الخرق فى الراى وشيك أن يوقع صاحبه فى الزلل احدى المرار فيضيع عليه ما لو علم انه مضيعه لفدام بكل ما فى دماغه من هوس وما فى لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الراس بمصطفى الرافعى فحق علينا ان نفهمه خطر مركبه وأن قدميه اسلس مقادا من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شـــوقى وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجمـــاع ما ينظر اليه الرافعى لأنه لا يبالى اذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنــــده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والذخيرة فلم يدع فى طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته أن القذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين .

ولقد احسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبه الى صنيعه ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على غير سياجنا ؟ ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه اذن لنفسه بغاية الافراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامي كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما تقول للجنة الأغاني في خطابك فان صاحب المساكين حري أن لا يغتصب بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار .

قلنا في نقد نشيد شوقي ان النشيد القومي يجب « أن لا يكون وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب » .

فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشيده فحور منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

الى العلا في كل جيل وزمن فلن يموت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت في الطبعة الأولى :

الى العلا في كل عصر وزمن فلن يموت مجد مصر لا ولن

ولما ان طوى هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض عن يديه ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقي لقوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا الخ .. الخ .

ويسأله : « وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه أم من شوقي للشعب ؟ ص ٧٩ » كما سألنا من قبل : « فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟! » وكما أخذنا عليه « أنه امتطى مطية الفلسفة والمواعظ » .

وانكرنا من نشيد شوقي أنه « قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدابنا في يومنا هذا فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به في جميع

المصور ان يتهيأ مكاننا وأن لا نبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ فى الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الأركان » .

فجاء أبو عمر البيغاء فقال : « واذا قيل اليوم لبنى مصر هيأ مهدوا للملك ومكانكم تهيأ فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد الف سنة وما شاء الله والى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله فى تمهيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقى عن الشمس : « الم تك تاج أو لكم مليا ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيغاء ايضا « أن زعم شوقى أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فلله ما أعلم البيغاوات بالتاريخ اذا لقنته !!

وعبنا على شوقى تخفيف الهمزات وأنه صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » تهيا و « شيئا » شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل فى همزة سيلت لم يفهمه الا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

وروينا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول عهدهم عزا و « فخرا » الخ الخ .

لأن التنوين لابد أن يسقط فى الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت . قالوا « واذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة (فخرا) ومد

بها صوته ووجهه فاى رائحة تفوح منها ! » ثم قلنا : « ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعلر المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين انهم : « تنادوا بقوله فخرا وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا انهـا مما لا يذوقه احـد الشعراء من طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هـذا السخف فلندعه .

اتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟!

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حـــدثانه اخذ الامانا

ونحن بنو السنا العالى نمانا اوائل علمـــوا الامم الرقيـا

لأن الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس » .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : « كيف غفل شوقى عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣ .

فأساله بالله ثم أسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا

فليس وراءها للعـــــز ركن

اليس لكم بوادى النيل عدن

... الخ الخ

قال : « ان البيت الثانى منبتر وسال : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والكوثر » .

فترك هو القائل والراوى وزوى وجهه عنهما وصاح وحده ! « كلام مقطوع عما قبله » . وسأل من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ » ص ٨٠ .

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفينـا الصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد سديد فاننا أن سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟! » .

فوضع اصابعه فى أذنيه – أو لم يضعهما – وأصر وولى واستكبر استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا : « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له فان القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل هذه الاديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها أن احدا تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة انها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه أنه ضمنها فى صفحة ٦٧ كتابا للاستاذ منصور افنـدى عـوض مؤرخا فى ١١ ديسمبر ...

فهـذا الخلق البغيض ونظائره من جرثومته هى التى تملأ نفوسنا تقزاز وعزوفا من أدب الجيل الماضى وادبائه ، ومن صناعة من ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لأحقر الصناعات من حرمة يرعى ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده – ارجحهم منها سـهما

اجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وارفعهم فيها اسما اطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولا حقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على المحترف بها باس من السماجة والافتراء ؛ وانما الباس كل الباس عليه من المروءة والحياء .

ولقد التسلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم فى جلسة لجنة الاغانى فقيدناها لهم وابينا لانفسنا ان ندخلها فى كلامنا مع انها أهون وجوه النقد التى اخذناها على النشيد ومع اننا تحدثنا بها لاصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل أن نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحى ان يسم نفسه على غلاف رسالته «بنابغه كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعمد الى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامه فينتحله جملة ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى بسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالاصنام(١) ثم لا يرى ان عليه بعد ذلك ان يوحى بفرد كلمة اليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كاننا حين كتبنا نقدنا فى مصر كان هو يكتب رسالته فى اقاصى الصين أو أطراف السويد ولا ندرى وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟

ولما اراد أن يعتمد على نفسه فى وجه من أوجه النقد لم نذكره وظن أنه فاتنا ابلغ فى الفند والسخف فنعى على نشيد شوقى خلوه

---

(١) قال فى صفحة ٦٩ « جهد أكبرهم ان يقرد اصنام الطبقة التى هم دونها ليكونوا بذلك اصناما للطبقة التى هى دونهم » وقال فى صفحة ٧٠ « وكم من صنم قد تغلغل باطله وتزفت شياطينه وانفرجت رذائله فاذا ذهبت تصلح منه التوى عليك »

من لفظتي الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة تتغنى بأنها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه فى مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

ايه يا خفافيش الأدب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم . السوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فانكم بهذه المساوىء تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسبها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضتنا اثنين : أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يأبون الا ان يعدوا شكرى من دعاة الجديد والا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب الجديد وننفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولا نحن نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهـــل البصر والاتزان وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

اما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على أكتافهم رءوسا وكأنما حملوا معدة أخرى لا عقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم يطالبوننا أن لا نشيم الخير من احد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محظور وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه !! فياويحنا لقد اسخطنا والله هذه المعدات الضافية وهجنا ثعالبها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى « وضع اهم احجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيتهوشهرته » كما يقولون . ولكن لا ضير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب فانا لا ننكر ان شكرى « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لبكمه ماذا يقول . ويتطوع المشعفون عليه للدفاع عنه فيجيء دفاعهم أقتل له من نقدنا . وينقمون منا انا جعلناه صنم الالاعيب وهم يسخرون منه ويتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى نخلص له النصح ونمحضه الراى والسداد ونشجعه ونغتبط بما نراه من تململه من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة فى التحرر وتجرى مع الامل فيه فهل كان علينا ان نظل العمر طامعين فى غير مطمع ؟ ثم اهملناه على شيء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا عليه فى الزجر فلم يغن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا راكبا راسه حتى احفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى أول عهده بقرض الشعر لا نغفل الى جانب التشجيع أن ننبهه الى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء الثانى من ديوانه « انه يطأ مفاخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح ولا يبالى اى ثوب البس معانيه » وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء المثال العتيق » اى انه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الأخرى غطيط المقلدين فى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى احد ان راى اليوم لا يتفق مع راى الأمس ان صح أن هناك رايين ؟ كلا لقد أدينا الواجب له وللأدب قديما ولكنا اليوم نؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها « انك تتهم شكرى بالجنون وانت مثله والجنون فى شعرك كثير » وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه أبدا الى هذا الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالته . على أن كوني مجنونا لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شيء جل أو دق وما اتهمنا شكرى ولا تقولنا عليه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ » :

« انى أسيء الظن بكل شيء سواء الحميد والذميم فلا غــرو اذا رأيت فى الضيـــاء ظلاما ورايت فى سواده ما يخلقــه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى اذنه فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس فى اذنه اليسرى ومن العجيب ان هـــذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (!!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط فى الظلام وتؤدى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من اجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلغت اعماقه ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعني جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لا ينسي المرء الفكر والامانى) اهـ .

فهل رأيت أيها القارىء أننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ فى شيء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخينا للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحـواس واوردنا شاهدا على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من « الاعترافات » شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هـــذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى (حــركات وجههــا وجسمها) وليس هذا من المجاز فى شيء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعــلان دهشـــته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ .

« ويســمع المحب انغاما وألحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى أشكالا هندسية بديعــة لا تسمع عنهــا فى كتب

الهندسة ويرى ازهارا خيالية لا يعرفها الباحثون فى علم النبات » فهو يسمع ويرى ما يعلم أن لا وجود له وفى هذا تأييد لقوله فى وصف جنونه « ولا اعني جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه » .

وشكرى قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال فى ص ٢١ من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس العجائز من النساء اسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحي عقلى (وحتى صارت) عالما كبيرا ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولى تحل حيث اكون . واذكر انى رأيت مرة عفريتا على سطح منزلنا وكان أسود الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف » .

وليس ذلك فى صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده كما كان فى حداثته .

انظر قوله فى ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفى بعض الاحايين اخاف خوفا شديدا ان يظهر لى ابليس . فالتفت كى اثق انه لم يظهر بعد وفى بعض الاحايين أعتقد وجود العفاريت والجن كما كنت أعتقد فى ايام صغرى لقد سمعت البارحة القطط تعوى وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الأرواح الحائرة المعذبة (التي تتخذ الليل جلبابا ثم تفرغ فى ذلك العواء ما تقاسيه من العذاب فلما سمعت عواء القطط كانها الخرس اذا حاولت الكلام لم اشك فى انها عفاريت من الجن واصابتى رعدة شديدة .

وتأمل تدقيقه فى وصف هذه الأرواح الحائرة التى يذكرها وكيف انه لا يجد تمثيلا لمواء القطط ـ لا عوائها ـ الا بعواء العفاريت وكذلك كل صوت فى سمعه قال فى ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت فى ولدها » وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تأكل الدور قال فى ص ٣٤ « اذكر انى رأيت مرة حريقا هائلا فى جنح من الليل فهيج فى قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلتنى أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهدم وتنهال وتتصاعد ألسنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوبا وكنت أحس لفح تلك النار فى خيالى وذهنى .. هذه هى المناظر التى (التذها) ومن الغريب انى يخيل لى أن هـذه المناظر وما تبعثه من الاحساس تعين المرء على أن يفهم الحياة ومعرفة سرها » .

ثم تصور شكرى واقعا له ما يصفه هنا فى اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رأيت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكرانى بسوء .. أو أحدا ينظر الى الا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وانى لأسىء ظنى الآن بمن سيقرأ هذا الكتاب وما رأيت أحدا ينظر فى ثيابى الا حسبته رأى فيها شيئا خفى عنى وما رأيت أحدا ينظر فى وجهى الا حسبته راى فيه شيئا قذرا وما رأيت أحدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلى بغضا او حقدا وما رأيت أحدا باسما الا حسبته يسخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكا لم اعرف سببه الا خجلت خجلا شديدا وحسبتنى غرضا لذلك الضحك (ومن أجل ذلك صرت اعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس الا من عرفته

سبب ابتسامه وأحيانا اعرف سبب ابتسامه فلا يمنعني ذلك من اساءة الظن به)

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والعفاريت كل ما يملأ ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رأيت فى الحلم البارحة أنى أتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما أدفع به التهمة فصرت أصيح أمام القاضى وأقول أنا برىء والقاضى يهز راسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم رأيت بعد ذلك انى أساق للسجن والاعدام انه لحلم يفزع .. انى لأذكر أنى اتهمت (زورا وبهتانا) فى أيام صغرى بسرقة علبة من الحلوى ولا أزال اذكر ما نالنى من الفزع أن تكون الحياة كلها تهم (كذا) باطلة .. على انه من (جنون) اليأس والفزع والجبن توقع ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغى ان تفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى ان هذه التهم مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منه ان يصدق القارىء ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس منقسمون بفطرتهم الى قسمين فهم اما مجرمون واما أبرياء وهذا نظر فاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام .. اى الناس لم تخطر بباله خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك فى نفسه من حشرات الشر .. لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع المرء الى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء القاتلة الحرارة والمرء فيها كالمصحر الظمآن يليح له سراب الشر (بضيائه) فيريد أن يروى ظمأه وينقع غلته أنا اليوم برىء ولكن ما يدرينى ربما كنت فى غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التى فى

نفسي .. وكنت اشفق على المجـرمين واملأ لهم قلبي رحمـة فانه لا يحزنني في الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التي يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رأيت في الحلم مرة اني اتيت جريمة القتل ثم وقفت امام جثة المقتول وقد احسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمي وكنت احس جريه كأنه دبيب الحشرات وقد جمد الدم في عروقي واسودت الدنيا في عيني وكلما اردت ان اتنفس احسست شيئا يسد مجرى النفس وكنت أحس صوتا كأنه صوت أعصابي تتقطع فيحكي صوت تقطع أوتار العود وكنت يخيل لي كأن يدا من جليد قد وضعت على ظهري هذه الاحلام التي تمكن الاديب ان يعدم شخصه في اشخاص غيره وأن يلج الى أرواح الناس وعواطفهم وأن يرحم المجرم كما يرحم التعيس » .

وقال في ص ٦٢ : « ليس من سبب لبغض المتحرين وانتقاصهم الا حب الاحياء انفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة ان انتحر فرارا من سلطان القضاء فأخذت سكينا وأدنيتها من صدري ثم قدرت مكان القلب وقلت هنـا ينبغي أن اضرب نفسي الضربة القاضية فلم تهن على نفسي فقلت الليلة الآتية افعل ذلك ولما اتت تلك الليلة ارجأت الانتحار الى ليلة اخرى حتى أفكر في طرق الانتحار واختار منها واحدة » .

وقد فكر في الانتحار مرة أخرى لسـبب هذا خبره قال في ص ٩٦ :

« اني لا ازال اذكر ذلك اليوم النحس الذي لطمني فيه شقيقي لم يكن يدري مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن واخاه الحزم همسا في اذني قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو اقوى منك فلا تصببه الا ببعض مايصيبك فخير لك ان تتحمل اللطمة الأولى وان تنجو سليما فوقعت يدي الى جانبي واحسست أن روحي قد سلبت أجل شيء فيها فنظرت الى ما بين قدمي لأرى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم احسست كأن عظامي قد احترقت

ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة فجعلت أعدو من الفيظ وقد اسودت الدنيا فى عينى وجعلت انظر الى المارين وهم ينظرون الى فارميهم بلحاظ المقت والكره لانى كنت احسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدثَ لى ويفهمون سر روحى التى اهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت أن ارمى نفسى فيه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التى تفر من اللطام الى الحمام ثم ذهبت الى البيت .. وخطر لى (أن أتأبط سكينا او مسدسا وأن أنتقم من ذلك الشقى فأقتله) ولكن الحزم والجبن وهما سميراى ونصيحاى الاحا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت اقرض اسنانى من الفيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات (الجنون) اهـ

على أنه تشجع مرة بعد هذه وأراد أن يظهر أنفته وعزة نفسه فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكهة بعقب هذه المرارات .

قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدال بيننا وخفت أن يبدأ اللطام بدأته به فان المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت أريد أن يخر مغشيا عليه منها ولكنى خفت أن أفقأ عينه أو أن أصيب أحد اعضائه بتلف دائم او أن تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة وبالعقاب الشديد .. كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما سددت يدى لألطمه ومن أجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا فمد الى يده باللطام ولكن يخيل لى أنه لم يخش ما خشيت من العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح » .

وقلنا عن شكرى انه ابكم فكأننا اخترعنا شيئا وحسب البعض ممن يظنوننا نلقى القول على عواهنه ولا نبالى اين وقع من الحقيقة أننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة فى ايجاعه وتنقصه والزراية عليه

ولهم العذر اذ ما أدراهم أنه هو القائل فى ص ٣٩ من الاعترافات :

« انى فى خلوتى بنفسى أعد الكلام البليغ والحجج الراجعة والكلمات البليغة وأتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم اذا خلوت بنفسى بعد ذلك اقول كان ينبغى أن اقول لهم كذا كذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن أى مزية فى أن يكون المرء (عييا) فى المجالس فصيحا فى الخلوات ؟ وهذا سبب من أسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة » .

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر او المحزون او قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص . قال فى صفحة ٤٧ من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر الى جرأة اترابى من الغلمان (وحسن لهجتهم) واعجب بها وأتمنى أن أكون مثلهم . أذكر أن أبى زار بى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الغلام وصافحنا وحيانا (بفصاحة وطلاقة ورشاقة) أعجب بها الحاضرون وصاروا ينظرون الى ويضحكون » .

ولا تظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنون » فى شعره بعد اقراره به وتقريره أنه جرع كأسه المرة وأنه وصل الى أعماقه وأنه يحس بجنونه ويعرف أسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون أنهم مجانين

وفى الناس كا ابون حتى على انفسهم ولكنا عاشرنا شكرى اعواما طويلة رحالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ فى شىء مما وصف به نفسه بل لعله آثر السكوت عن اشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه وملابسيه . ولا يمكن ان يقال فى الرد علينا وفى تبرئة شكرى مما قرف به نفسه أن « الاعترافات » صاحبها رجل آجر اسمه م . ن وان شكرى ليس الا ناشرا لها فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة من المقالات لا يربطها شىء الا ضمح المتكلم وقد نشر شكرى أكثرها فى « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على انها له ثم عاد فجمعها فى كتاب طبعه فى ١٩١٦ ويرى قارىء الاعترافات أبيات شعر كثيرة واردة فى اثنائها وفى الهامش انها من شعر المؤلف وصاحب الأبيات هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التى هى منها وقد يعين الجزء من ديوانه الذى وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارىء على الركون الى هذه الاعترافات وتصديقها.انه يجد مصداقها فى شعره فكما انه قال فى الاعترافات فى نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال فى شعره « فقد اغرم الانسان بالشر والأذى » وقال :

كل نفس فيهـا الخير والشر

دواع طويـلة الاغفـاء

وقال معترفا انا اليوم برىء ولكنى ربما كنت فى غد مجرما ومن شعره

ربمـا شب بـين جنبيك للشر

ضرام ما ان له من فنـاء

انت فى اليوم واسع الجاه غض ال

خير لـدن الرخاء رطب الرجاء

خالص الكف من دمـاء قتيـل

ابيض الطبـع لم يشب برياء

ربمـــا كنت لى غـــد اشعث الطبـ
ع لئيم الخصـــــال جم الشقاء

خاضب الـكف من دماء عـــدو
طـــائر الضغن ثائر الشحناء

وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل واورنا بدأ من أعترافاته وفى شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة الغادرة » وهى قصة امرأة ارادت أن تسمه فسمها هو :

وهى قد افرغت لى السم فى كوبى
وقامت تمـر غـيـر بعيـــد

ثم غافلتهـا وافــرغت كــوبى
فـــوق ماء بكوبهـــا منزور

ثم نلنـــا من الطعـــام بلاغا
وشربنـــا بـــرءا من التصريـد

ثم جاء اليوم الجديد فنـــامت
زوجى الرود نـومة المقبـــور

فصـل الســم فصله فى حشـــاها
ودهاها من الـــردى بقيـــود

ومنها قصيدة عنوانها « أم أسبرطية قتلت ابنها » وهو فيهـــا يبرر هذه الجنـــاية لأنه فر من الحرب قال وقد نسى انه هو أيضا جبان حتى فى مواطن « اللطام »

أيهـــا الخائن الجبان خشيت الـ
موت والموت حـادث مقـــدور

ان اما تعزى لهـــا قتلت فى
قتلك العـــار لم يصبهـا معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة »

قــد قبلتني قبـــلة مرة
كأنها من حمـــة العقـــرب

تنهش جـــاها لم يـكن نهـزة
لشـــاحذ الأنيـــاب والمخلب

لولا وميض الرأى يكتـــادنى
يعيـــذنى من سفه المغضب (11)

جللتهـــا بالسيف امحو بـه ال
ذنب بـــذنب رائـــع معجب

وتأمل فى هذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف انه يصف الجريمة بانها رائعة معجبة . ومنها قصيـــدة العقاب بالقتل وفيها يعذر المجرم

اطيلـوا حيـــاة الجارمين فانهـا
حيـاة اذا ســـد المطامع عاقر

لقــد اخلفتهم بلغـة العيش برهـا
زمانا وحابات الحيـــاة غـوادر

فبئس حيـــاة المرء والفقر عاكف
عليه واســباب الحيـــاة جرائر

هنـــا لك انى للفقير لعــــاذل
وانى لــه ممـا يعانيـــه عاذر

كأن كل من يجرم يكون باعثه الفقر والخصاصة : وله عدا ذلك أبيات كثيرة فى تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه

فلو كنت بين النـــاس ربا معززا
ونادوك انى فاتك النفس جـــارم

لالفيت غفـرانا لديك ورحمـة
فمـا يغفـر الزلات الا الأعاظم

وقوله :

رحت اسعى كمصحر بان عنه ال
صحب فردا ذا وحشـة واطراح

او كذى الجرم حين طال به السجن
يضـل الطريق عنـد السراح

وقوله :

كان همـوم المـرء ذئب مراوغ
فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا

وفى واعترافاته انه يحلم بانه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك فى شعره

يرى الناس ان النوم ام رحيمـة
ولكن نوم الجـارمين عقـاب

يسل على الحلم أسـيـاف نقمة
فاحـلام نومى كالجحيم عـذاب

كم هـد من عـزم صليب عذابها
وشيب وراد الذنوب فشـابوا

ومنها :

وغيرنى عمـا عهـدت جـرائرى
فليس الى الحال القـديم اياب

فلا تحسـبن الشر يمحى بتوبة
وان غفر الجـرم العظيم متـاب

يواقع كل النـاس بالفـكر شرهم
وقـد عابنى انى جـرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشرذا الخير نفســه

وذاك حــديث ما عليــه عقـــاب

وقد شبه فى اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضـــياء وكذلك فعل فى هذه القصيدة

ظمئنا فخلنا الشر فى العيش منهلا

لــكن ورد الجـــارمين سراب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم يرفيه مأثما

وان بقلبى من جفــائك (جنة)

فان رام يوما قتلـــكم ما تأثمــا

فاسقى جنــونى من دمائك جرعة

وهيهات يجدى القتل قلبــا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تقصيه وما بقى من شك فى أن الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هى صفاته وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شــاذ غير مألوف فى الفطر السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالغنا اللهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ؟ كيف والطبع أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظار معكوس يريها الأشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

« ابراهيم عبد القادر المازنى »

فهرس

الجزء الأول

الصفحة

الجزء الثانى

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٦/١٤١٣٢

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مَطَابِعُ مؤسسة دار الشعب - للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ١٠١ ٢٥٥١٨ - ٢٥٥١٨١٨ - ٢٥٤٢٨٠٠